مقالات في

أثر الشعوبية في الأدب العربي وتاريخه

الدكتور نعمة رحيم العزاوي

سلسلة المكتبة الثقافية لنقابة المعلمين ١٥

مقالات في

أثر الشعوبية في الأدب العربي وتاريخه

الدكتور نعمة رحيم العزاوي

سلسلة المكتبة الثقافية لنقابة المعلمين -

١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

هذه مقالات في الشعوبية وأثرها في الأدب العربي وتاريخه ، كنت قد أذعتها جميعها من اذاعة صوت الجماهير في بغداد . ثم نشرت بعضها في صحيفة الجمهورية الغراء ، وقد آثرت ان ينتظمها سفر ، وتجمعها دفتا كتاب ، لتعم فائدتها ، وتؤدي الغرض الذي كتبت من أجله .

لقد جعلت هذه المقالات في خمسة أقسام ، تناولت في القسم الأول مفهوم الشعوبية ، وجذورها التاريخية ، وأثرها في الأدب العربي والثقافة العربية وعرضت في القسم الثاني لأبرز الأدباء الشعوبيين ، شعراء وناثرين ، ووقفت عند اثرهم في مساندة الحركة الشعوبية ، واشاعة مفاهيمها المعادية للعرب والاسلام ، ثم قصرت القسم الثالث من هذه المقالات على أشهر الأدباء الذين قاوموا التيار الشعوبي ، ووقفوا بوجه سيله العارم ، وكان لهم شرف الدفاع عن العرب وتاريخهم وثقافتهم وفضلهم على الحضارة الانسانية .

وأما في القسم الرابع فقد تكلمت على بعض الحركات المسلحة التي قام بها الشعوبيون لتحقيق ما كانوا يسعون اليه من تقويض الحكم العربي والقضاء على سلطان العرب .

وقد تكفل القسم الخامس من هذا الكتاب ببيان أثر الشعوبية في تاريخ الأدب العربي ، وتسليط الضوء على ما أثارته من آراء وافكار هدفت الى التشكيك باصالة بعض العلوم والفنون الأدبية التي ابتكرها العرب ، وكان لهم فضل اختراعها ، كما توخت تلك الآراء والافكار الشعوبية تفخيم أثر بعض الأعاجم في الثقافة العربية ، وابرازهم وكأنهم اساتيذ العرب وأولو الفضل عليهم في عدد من الميادين العلمية والأدبية ، مع ان اولئك الاعاجم لم يزيدوا على ان كانوا تلامذة للعبقرية العربية ، عنها اخذوا ، وبها تخرجوا ، ونالوا مانالوه من شهرة علمية او أدبية .

تلك هي أبواب الكتاب وموضوعاته ، فعسى ان أكون قد وفقت الى رسم صورة جلية لما كان للحركة الشعوبية الهدامة من أثر قوي في تشويه أدبنا العربي ، وتاريخه وعلومه ، واني لآمل ان تتجلى للقارىء الكريم – بعد قراءته هذه المقالات – الصورة الرائعة لأدبنا وتاريخنا الأدبي ، وأن يظهر له ما غشى تلك الصورة من اوهام وأباطيل ، نسجها الشعوبيون ، وروجها انصارهم والمخدوعون بهم من عرب ومستشرقين ومن الله التوفيق .

الدكتور نعمة رحيم العزاوي

بغداد في ١٩٨٢/٤/٣

[illegible]

الشعوبية والأدب العربي

[illegible]

في مفهوم الشعوبية وجذورها الأولى

الشعوبيون قوم متعصبون على العرب لايرون لهم فضلا على غيرهم من الامم ، بل يرون أنهم أقل شأنا ومنزلة من الشعوب.

وقد سموا بالشعوبية لانتصارهم للشعوب الأعجمية ، وتقديمهم اياها على العرب.

والشعوبيون فريقان : فريق يدعى بأهل التسوية ، وهم الذين يذهبون الى ان الناس متساوون ، ولاتفاضل فيما بينهم بالأحساب والانساب،وقد احتج هؤلاء بقوله تعالى «ان اكرمكم عند الله أتقاكم» وبالحديث النبوي الشريف «كلكم لأدم وآدم من تراب ، لافضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى».

وقد رد العرب على هذا الفريق من الشعوبيين بأن الناس متساوون أمام الخالق جل وعلا ، كما هم سواسيه في الامور الدينية . وأما في امور الحياة فهم متفاوتون يفضل بعضهم بعضا ، وان هذا التفاضل يبنى على اعتبارات كثيرة ، كشرف المنبت ، وكرم الفعال ، واحتجوا باحاديث نبوية كثيرة كقوله (ص) : «اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» وقوله «اقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم» . كما لقب النبي قيس بن عاصم بسيد اهل الوبر.

والفريق الثاني وهم الأعاجم الذين اسلموا وفي صدورهم حقد ، وحشو نفوسهم ضغينة . او اقاموا على دينهم القديم . ، وظلوا يتحينون الفرص للايقاع بالعرب ، والاطاحة بدولتهم.

وهذا الفريق لم يكن يذهب مذهب اهل التسوية ، بل كان يجهر بان العجم افضل من العرب ، وأعز شأنا ، وأعرق حضارة . بل ذهب انصار هذا الفريق الى أبعد من ذلك ، وبالغوا في التطرف ، فأثبتوا لكل أمة ميزة من الميزات ، او مكرمة من المكارم ، اما العرب فلم يكن لهم في نظرهم من مكرمة أو ميزة . وكانت غالبية هذا الفريق من الفرس.

ويبدو أن الفريق الثاني أشد عداوة للعرب من الفريق الأول ، كما كان الصراع قويا بينه وبين العرب ، وهو صراع شمل السياسة والادارة والدين والعلم والأدب ومظاهر الاجتماع والعادات والتقاليد.

ولابد من الاشارة هنا الى أن العداء الفارسي للعرب لم ينشأ بعد الاسلام ، او بعد تحرير العرب لأرض فارس ، بل ظهر قبل الاسلام ، وكان سبب بعض الحروب التي انتصر فيها العرب ، واذلوا كسرى وقومه .

لقد أحس العرب قبل الاسلام بعداء الفرس لهم ، كما شعروا بغطرستهم ، ورغبتهم في اخضاعهم والتطاول عليهم ، فاظهروا من صلابة العود ، وقوة الشكيمة ماهزم كسرى ، والحق به الهوان . والشواهد على ذلك كثيرة ، حفلت بها كتب والتاريخ .

ولعل أبرز هذه الشواهد ماكان كسرى قد فكر فيه من الاصهار الى العرب ، وما كان من رفض النعمان بن المنذر ، الملك العربي ، لهذا الاصهار . لقد قال النعمان لرسول كسرى : أما في عين السواد وفارس مايغنيكم عن بناتنا . وحين سأل كسرى عن كلمة (عين) قيل له : هي البقر ، فغضب ، وحقدها على النعمان وكان ذلك من اسباب اندلاع حرب ذي قار التي قامت بين الفرس والعرب لتمام أربعين سنة من مولد النبي (ص) .

غير أن الشعوبية لم تتخذ شكل حركة منظمة ، لها أصولها ومبادئها الا في العصر العباسي الاول ويذهب الاستاذ احمد امين الى ان كلمة «الشعوبية» استعملت أول مرة لدلالة على هذه الحركة في كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ ، ويستدل باحث معاصر على صحة رأي احمد امين هذا بان اسماء الفرق التي ظهرت في العصر العباسي كانت تحتوي على ياء النسب كالجهمية والراوندية والخرمية ، ومثلها الشعوبية .[1]

وكان طبيعيا حين اشتدت حركة الشعوبية ، واحتدم الصراع بينها وبين العرب ، أن يكون لها صدى في الادب العربي ، وان يحفظ هذا الادب شيئا مما قاله الطرفان المصطرعان . ويبدو أن الشعر الذي قاله العرب دفاعا عن انفسهم ، لم يحفظ كله ، وانما عمد الرواة ، وكان كثير منهم من الفرس ، إلى طمسه ، والتعفية عليه .

لقد كانت المناقضات بين الشعوبية والعرب إحدى سمات الادب في العصر العباسي ، ومن الانصاف هنا ان نذكر أن بعض الفرس المنصفين كانوا يرفضون التيار الشعوبي ، ويأخذون على ايدي انصاره ، فالصاحب بن عباد حين وفد عليه بعض الشعراء الشعوبيين ، ومدحه بقصيدة تطاول فيها على العرب ، وفضل فيها قومه الفرس عليهم وقال فيها :

اما لو لم يكن للفرس إلا نجار الصاحب القرم النبيل
لكان لهم بذلك خير فخر وجيلهم بذلك خير جيل

التفت الصاحب الى الاديب العربي بديع الزمان الهمداني وكان حاضرا ، فحرضه على ذلك الشاعر الشعوبي وطلب منه الرد عليه والدفاع عن العرب ، فقال بديع الزمان مخاطبا الشاعر :

اراك على شفا خطر مهول بما أودعت لفظك من فضول
تريد على مكارمنا دليلا متى احتاج النهار الى دليل
ألسنا الضاربين جزى عليكم وان الجزي اولى بالذليل
متى قرع المنابر فارسي متى عرف الأغر من الحجول
متى عرفت - وانت بها زعيم - أكف الفرس اعراف الخيول
فخرت بملء ماضغتيك فخراً على قحطان والبيت الاصيل
وتفخر ان مأكولاً ولبساً وذلك فخر ربات الحجول
مفاخرهن في خد أسيل وفرع في مفارقها رسيل
وامجد من ابيك اذا تزيا عراة كالليوث على الخيول

ولما فرغ البديع من انشاد قصيدته ، التفت الصاحب الى الشاعر الشعوبي وقال له : جائزتك عندي جوازك اي اخلاء سبيلك ، والله ان رأيتك بعد هذا ضربت عنقك . ثم قال : لاأرى احدا يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية ينزع اليه [٢] .

دور الفرس في الحركة الشعوبية

يجمع المؤرخون على أن الشعوبية حركة معادية للعروبة والاسلام ، كما أن مظاهر نشاطها جميعا هدفت الى النيل من العرب ، ومن الدين الحنيف الذي سطعت شمسه بين ظهرانيهم ، وانتشر اريجه من ربوعهم ، وندبهم الله لنشره ، والمسير به في شرق الأرض وغربها .

ويجمع المؤرخون أيضا على أن الكثرة الكاثرة من الشعوبيين كانت من الفرس ، بل ان فكرة هذه النحلة بثت في رؤوسهم ، ثم تعهدوها وعملوا على تغذيتها ، حتى استوت حركة قوية ، وصارت مذهبا هداما ، لم يواجه العرب اشرس منه ، ولا اكثر

خطرا عليهم وعلى حضارتهم ورسالتهم الانسانية .

ولما كان رؤوس هذه الحركة ، والواضعون لفلسفتها ، والقائدون لمظاهر نشاطها من الفرس . فان المؤرخين يعللون ذلك بعوامل عديدة منها العامل الديني .

فالشعوب الايرانية كانت في غابر الزمن تدين بديانات عدة ، تقوم جميعها على الثنويه . فالزراد شتيه وهي الدين الذي جاء به زراد شت كانت ثنوية . يقول الشهرستاني : انهم «اثبتوا اصلين اثنين مدبرين قديمين ، يقتسمان الخير والشر ، ويسمون احدهما النور والاخر الظلمة»[٣] .

والمانوية ديانة اخرى حملها الى الفرس ماني ، وهي ثنويه ايضا ، تذهب الى أن «العالم مركب من اصلين قديمين احدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان»[٤] .

وكانت المزدكية ديانة فارسية قديمة ، وضعها مزدك ، واقامها على الثنوية أيضا ، وعلى الايمان بوجود قوتين كبريين ، تدبران العالم ، وتسوسان اموره ، وتصرفان شؤون الناس فيه . هما النور والظلام[٥] .

وبجانب هذا الأساس الذي قامت عليه الديانات الفارسية القديمة ، كانت هناك اسس اخرى تنظم الحياة ، وتحكم المعاملات والعلاقات ، فالزرادشتية اشاعت طائفة من المعتقدات الاباحية . وكذلك فعلت المانوية والمزدكية ، حتى ان مزدك لاحظ ان الناس متفاوتون في حظوظهم من الاموال والنساء فقضى بان تكون الاموال والنساء شركة بين الناس ، كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ[٦] .

وكان الفرس قد اطمأنوا الى هذه الديانات ، واعتادوا ماغرسته فيهم من عادات وتقاليد . تبيح لهم الاثم . وتجعل جميع الشهوات في متناولهم ، لايحرم منها شيء عليهم . ولايبعد شيء منها عنهم . فلما حمل العرب الاسلام اليهم ، وهو دين يقوم على التوحيد . ويدعو الى مكارم الاخلاق ، ويؤكد كبح الشهوة ، والترفع عن الدنايا ، ضاق به فريق من الفرس ، ورأوا انه يسلبهم ماكانوا فيه من اباحية ، وبهيمية ، وجري وراء اللذة ، ويحرم عليهم الشرك ، واتخاذ الهين أو اكثر.

لقد جادل القرآن الكريم اصحاب العقائد الثنويه ، وحذرهم المضي في عقائدهم ، فقال جل من قائل معللا صحة مبدأ التوحيد : «لو كان فيها الهة الا الله لفسدتا» وقال تعالى «ماتخذ الله من ولد وماكان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض» وقال جل شأنه «لاتتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد

فاياي فارهبون» .

يقول باحث معاصر «ان كل الديانات الايرانية ثنويه لذلك نرى عقيدة التوحيد تصطدم بالعقيدة الثنوية اصطداما مباشرا منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم برسالته الى كسرى ابرويز يدعوه فيها الى الاسلام ، وقد بقي هذا التصادم طوال عهد الدولة العربية ، وكانت الشعوبية من أهم نتائج هذا التصادم»[٧] .

ولم يقف الاسلام بين الفرس وماكانوا يعتقدونه من ثنويه حسب وانما حال ايضا دون ماكانوا يقولونه من الحلول ، فدياناتهم القديمة تجيز القول بحلول جزء من الاله في البشر ، وقد دعاهم هذا الى تقديس الملوك ، والارتفاع بهم عن منزلة البشر .

ومن هنا وقف الشعوبيون بوجه الاسلام ، لانه يسفه ما لقنوا من دياناتهم السابقة ، كما راحوا يتأولون بعض الايات القرآنية ، ويفسرونها على الوجه الذي يدعم معتقداتهم ، ويثبت صحتها .

فهم يتأولون قوله تعالى «وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله» ويرون ان هذه الاية تؤيد مبدأ الثنويه ، مع انها لاعلاقة لها بالثنوية ، فالله تعالى في السماء اله وفي الارض اله وفي البحار اله وفي القفار اله وفي كل مكان اله .

كما يتأولون قوله تعالى «ثم سواه ونفخ فيه من روحه» وقوله «والتي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا» وواضح ان مافي الايتين الكريمتين لاعلاقة له بما يقوله الشعوبيون من مبدأ الحلول . ولكن الشعوبية التي كانت رد فعل للاسلام ، والتي اعياها النيل من هذا الدين الحنيف ، ذهبت تشوه مبادئه ، وتتأول بعض الايات على النحو الذي تشتهيه ، لتزعزع ضعاف العقيدة ، وتثير الشكوك في نفوسهم .

وكان مبدأ الجبرية من الاسلحة التي شهرتها الشعوبية بوجه الاسلام . لقد جرد اهل الجبر الانسان من حرية اختيار اعماله ، ولم يجعلوا له اثرا في تصرفاته ، مستغلين في ذلك بعض الايات الكريمة التي دعموا بها اقوالهم ، ومن هذه الايات قوله تعالى «فألهمها فجورها وتقواها» وقوله تعالى «ومن يضلل الله فلا هادي له» .

واذا علمنا ان اول من قال بالجبر هو جهم بن صفوان المنحدر من اصل فارسي[٨] ادركنا ان هذا الرأي لايعدو ان يكون مبدأ هداما اراد هذا الفارسي ان يشيعه في المجتمع العربي ، كيدا للدين ، وتشويها لمبادئه من جانب ، وتعطيلا لمسيرة الحضارة العربية من جانب اخر .

ان مبدأ الجبرية الذي انتجته عقيلة فارسية هو «من التعاليم الهدامة التي كانت تدعو الى البطالة والتواكل والركون الى القدر من غير عمل حتى تصاب الامة العربية بشلل اقتصادي ، وتلك هي رغبة الموالي ...»[٩] .

ولايقتصر خطر الجبرية على اشاعة الكسل والخمول في المجتمع العربي ، بل تتجاوز ذلك الى الاباحية ، وهي ماتقول به الديانات الفارسية القديمة ، ذلك لأن مبدأ الجبريين طرق الرذيلة والفساد للانسان ، ويسوغ له ارتكاب الخطيئة ، مادام مسيرا غير مخير . نخلص من ذلك الى القول : ان انتصار الدين الاسلامي كان عاملا من عوامل قيام الحركة الشعوبية ، ذلك لان فريقا من الفرس وجدوا من انتصاره قضاء على عقائدهم الدينية الموروثة فمضوا يكيدون له ، ويعملون على طمس جوهره ، بما اذاعوا من افكار ، وماتأولوا من ايات ، وبما اثاروا من مسائل البسوها ثوب الاسلام ، وهي في حقيقتها ترمي الى احياء عقائد زرددشت وماني ومزدك .

الجذور الأولى للشعوبية

ذكرنا في مقال سابق أن عداء الفرس للعرب عداء تاريخي قديم ، تمتد جذوره في اعماق الزمن ، واذا شئنا الدقة قلنا انه نشأ قبل الاسلام بزمن طويل .

والذي يتلمس صدى هذا العداء في الشعر العربي قبل الاسلام يجد عليه شواهد كثيرة ، تنطق بما كان للشعوبية من أثر في أدب ذلك العصر ، وتدحض ماذهب اليه المستشرق جولدزهير من أن الشعوبية لم تترك أثرا في ادب العرب قبل الاسلام . والمستشرق المذكور يرى ان هذه الحركة ولدت وترعرعت في العصر العباسي[١٠] .

لقد ذهبنا في حديث سابق الى ان الشعوبية حركة منظمة نشأت في العصر العباسي ، ولكنها بمفهومها العام ترجع الى ماقبل الاسلام . ونعني بمفهومها العام عداء الاعاجم للعرب ، وشعورهم بالتفوق عليهم ، والقول بأن الأمم الاخرى افضل منهم .

لم يكن الادب العربي قبل الاسلام بمعزل عن هذا كله ، بل كان سجلا ضم ماقاله الشعراء والخطباء في تصوير العداء الفارسي ، وماقالوه في الحروب التي نشبت

بين العرب والفرس .

ولعل الخطب التي القاها زعماء العرب وحكماؤهم أمام كسرى عند وفودهم عليه ، تنطق بأن العرب كانوا يعانون عداء الفرس لهم ، كما يعانون غطرستهم ، وتقديمهم الأمم الاخرى عليهم .

لقد حفظ لنا الادب العربي قبل الاسلام ماقاله زعماء العرب وخطباؤهم في بلاط كسرى ، حين قصدوا اليه ، ليلقوا الرعب في نفسه ، ويثنوه عما كان يفكر فيه من غزو الأرض العربية ، وليشيدوا ايضا بالعرب ، وينوهوا بما كان لهم من خصال انفردوا بها بين الأمم ، بعد أن سمعوا غمز كسرى لهم ، واستهانته بهم .

لقد اظهر اولئك الخطباء امام كسرى ان العرب قوم لاتكسر لهم شوكة ولاتلين لهم قناة ، ولايستطيع ان يبلغ عدوهم منهم شيئا . وما ان سمع كسرى خطب الوفد العربي ، وماملأها من قوارص القول ، وقوارع التهديد حتى اعترف لجلسائه بانه لم ير وفدا اشجع ولاأجرأ من ذلك الوفد العربي .

ومن اصداء الشعوبية في الشعر العربي قبل الاسلام ، ماقاله عمرو والقضاعي مفتخرا بانتصار قبيلته قضاعة على الفرس ، عند اغارتها عليهم(١١) .

لقيناهم بجمع من علاف ... وبالخيل الصلادمة الذكور
فلاقت فارس منا نكالا ... وقتلنا هرابذ شهر زور
دلفنا للاعاجم من بعيد ... بجمع كالجزيرة في السعير

ولما انتصر بنو شيبان ومن معهم من العرب على الفرس في يوم ذي قار كان ذلك النصر مادة خصبة للشعراء ، وكان الأعشى احدهم ، اذ فخر ببني شيبان ، واستطال على العجم ، ووصف مالقوه على ايدي العرب من خذلان مر ، وهزيمة منكرة . ومما قاله الأعشى في هذه الحرب :(١٢) .

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... وراكبها يوم اللقاء وقلت
هم ضربوا بالحنو حنو قراقر ... مقدمة الهامرز حتى تولت

وكانت هذه الحرب لتمام اربعين سنة من مولد النبي (ص) ، ولما علم الرسول بانتصار العرب قال : هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبي نصروا .

«وقد لاحظ الاستاذ أحمد أمين أن العرب لما انتصروا على الفرس في حرب ذي قار لم يتغنوا بنصر العروبة عامة ، وانما تغنوا بنصر القبائل التي اشتركت في

الحرب ، وهم الشيبانيون والعجليون واليشكريون . فلم تتجل في الغناء روح عربية عامة لان العرب لم يكونوا يدركون انهم امة ، وانما كانوا يعتمدون على الحياة القبلية» . (١٣)

ولم يكن احمد أمين مصيبا في ملاحظته هذه ، فعلى الرغم من الحياة القبلية التي كان يحياها العرب قبل الاسلام ، كانوا يشعرون بانهم امة ، وكانوا يدركون ضرورة توحدهم لمواجهة ماكان يحدق بهم من خطر ، وخاصة الخطر الفارسي . وليس صحيحا مااستدل به احمد امين على عدم شعور العرب قبل الاسلام بأنهم امة ، فالاعشى عندما تغنى بالانتصار على الفرس لم يعز هذا الانتصار الى العرب كلهم ، وانما عزاه الى بعض القبائل العربية . وهو لم يفعل ذلك لانه لايدرك ان العرب أمة ، وانما فعله لانه اراد الايكذب على الواقع . ذلك لان العرب لم يحاربوا كلهم في يوم ذي قار ولو ان الاعشى اشاد بالعرب كلهم في موقعه ذي قار لجاوز الواقع ، ولم يقرر الحقيقة .

وهناك دليل ظاهر على ادراك الاعشى ان العرب أمة ، لا ندري كيف فات الاستاذ احمد امين ، وهو ان الاعشى قد اظهر اسفه على ان العرب لم يشاركوا جميعا في حرب ذي قار ، وأعلن انهم لو حاربوا مع اخوانهم المقاتلين لحظوا – كما حظى اخوانهم – بشرف الدفاع عن التراب العربي . وفي قول الاعشى هذا مايثبت ان العرب – والاعشى احدهم – كانوا يدركون انهم امة .

يقول الأعشى

لو أن كل معد كان شاركنا ... في يوم ذي قار ماأخطاهم الشرف

واذا كان يوم ذي قار قد جعل بعض الشعراء العرب يفخرون على الفرس بما عندهم من باس وشجاعة ونجدة ، وبما احرزوه عليهم من النصر ، فان هناك شعراء اخرين كانوا يفخرون على الفرس بمعان اخرى غير البطولة والشجاعة ، فقد فخروا عليهم بالحضارة والتمدن وبما كان للعرب من علم ورقي ونفوذ امتد الى الصين . وكان شعراء اليمن هم الذين سجلوا هذه المفاخر في شعرهم .

قال عمرو بن اسعد بن ملكي كرب(١٤) .

فضلنا الناس كلهم جميعا ... كفضل الابرزي على اللجين

ملكنا بعد داودو زمانا وعبدنا ملوك المشرقين
زبرنا في ظفار زبور مجد ليقرأه قروم القريتين
فنحن الطالبون لكل وتر اذا قال المقاول أين اين

ومن الملع قصائد الفخر على الاعاجم قصيدة قالها اسعد بن ملكي كرب وهو على فراش الموت ، يخاطب بها ابنه حسانا ، ويخبره بما كان لقوميه من ملك واسع شرق وغرب في ديار الاعاجم ، حتى اضطر الفرس والروم الى ان يعطوا له الجزية عن يد وهم صاغرون . يقول(١٥)

حضرت وفاة ابيك ياحسان . فانظر لنفسك فالزمان زمان
واعلم بني بان كل قبيلة ستذل ان نهضت لها قحطان
فيها ملكنا الارض عن اقطارها حتى اتت بخراجها البلدان
قحطان اسد سادة عربية غلب تهاب لقاءها الاقران
فلكت ارض الروم أملك بلدة ومضى هرقل واسلم الصلبان
وقتلت املاك الاعاجم كلها وخبت برغم انوفها السودان
نحن الملوك بنو الملوك أقاول ولنا عظيم الملك والسلطان

ولو لم يكن هذان الشاعران وامثالها يشعرون بان الاعاجم ينظرون الى العرب نظرة استهانة ، على نحو مافعل شعوبيو العصر العباسي لما اضطروا الى مفاخرة العجم ، والتيه عليهم باعمال وامجاد علمية وحربية وحضارية . وهذا يثبت ماقررناه في اول هذا المقال من ان الشعوبية بمفهومها العام ، غير المنظم او الدقيق ، هي حركة قديمة .

الشعوبية وغرض المديح

منذ أزال العرب ملك كسرى ، وحرروا ارض العجم من جوره ونشروا في ربوعها الاسلام ، شعر اهل العصبية من فارس بعداء شديد للعرب ، واضمروا لهم وللدين الذي حملوه شرا وكيدا كبيرين ، وذهبوا يتربصون الفرص للانتقام من العرب ، ويبذلون الجهود في مسخ دينهم ، وتشويه جوهره ، وتعفية معالمه .

ولكن نزعتهم هذه لم تكن لتظهر زمن الخلفاء الراشدين ، وفي اثناء الحكم الاموي ، لقوة نفوذ العرب حينذاك ، وخلوص الحكم لهم .

فلما جاء العصر العباسي ، وشعر الاعاجم بأن الخلفاء العباسيين الاوائل يقدرون

لهم نصرتهم اياهم ، في نزاعهم مع الامويين ، تطلعوا الى ما كانوا يحلمون به من اعادة ملك كسرى ، والانتقام من العرب .

لقد عامل الخلفاء العباسيون الاوائل الفرس معامله رائعة ، املتها عليهم اخلاقهم العربية ، ووفاؤهم لمن تظاهروا لهم بالنصرة والمحالفة كما دعتهم الى تلك المعاملة روح الاسلام وتعاليمه ، وهي تعاليم تقضي بالمساواة وتدعو الى عدم التفريق بين الاجناس والقوميات .

وقد تجلت المعاملة العربية الكريمة التي عامل بها الخلفاء العباسيون الاوائل الفرس بوصيه ابي جعفر المنصور قبيل وفاته لابنه المهدي ، اذ قال له[١٦] : «واوصيك بأهل خراسان خيرا ... ان تحسن اليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ...» كما تجلت تلك المعاملة بتولية الفرس مناصب الوزارة ، وتقليدهم اعمال الدولة ، والنظر اليهم على انهم مواطنون يستظلون بظل دولة عربية اسلامية ، فمن حقهم ان يعيشوا برؤوس مرفوعة ، وكرامة موفورة .

وازاء هذه المعاملة العربية الكريمة كان ينبغي للشعوبيين ان يتخلوا عن عنصريتهم ، ويبرئوا صدورهم من الحقد والضغينة ، ويعيشوا مع العرب عيش مسالمة وموادعة ولكنهم بدلا من ان يفعلوا ذلك ، راحوا يكشفون القناع عن عدائهم المستخفي ، وعصبيتهم العارمة على العرب ، فاخذوا يدبرون لتحويل الخلافة العربية الاسلامية الى دولة فارسية خالصة او قل الى ملك كسروي صرف ليس فيه من روح الاسلام نصيب،ولا لتعاليمه الانسانية السمحة مكان.

وفي الوقت الذي كان أصحاب النفوذ من الفرس يخططون فيه للاطاحة بالحكم العربي ، والاستئثار بالسلطة ، كان الضالعون في ركابهم من الأدباء الشعوبيين ، وبتشجيع من الساسة الفرس ، يعملون على تقويض المجتمع العربي ، وهدم مقوماته ، والسخرية الوقحة من كل تقاليده وعاداته وأنماط حياته .

لقد تمادى الشعوبيون بالاستهتار بالعرب ، وصارت مكارمهم وخلالهم الحميدة موضع طعن الشعوبيين ، ومثار هزئهم وسخريتهم .

فالحرص على النسب والاعتداد بخلوصه ونقائه لم يعجب الشعوبيين ، وانما راحوا يستهجنونه ، ويسخرون منه ، متسترين في ذلك بان المساواة بين الناس تقضي بعدم التباهي بحسب أو نسب ، وأن خير ما يرفع المرء عمله .

ولو كان هذا دافعهم لهان الأمر ، وكان لهم شيء من حق ، ولكن الدافع الحقيقي لهم كان الغض من أقدار البيوتات العربية الرفيعة ، والحط ممن ينتسب إليها ، بتسويته بالأغمار والجاهيل من الفرس الذين ارتفعوا الى السلطة . وفي هذا يتحقق لهم اضعاف المجتمع العربي ، اذ أن الاستهانة بالرؤوس في ذلك المجتمع ، يعني تحطيم زعامته . والتطويح بمن يحتل منه مكان القدوة والصدارة .

لقد صار الأدباء الشعوبيون ، تأسيساً على ذلك لا يمدحون بالنسب المجيد ، والأصل الباذخ ، والفرع الشامخ ، وانما كانوا يمدحون من لا أصول لهم من الفرس الحاكمين بما يصنعونه من معروف ، وبما لهم من عقل وحكمة[١٧]

فالذي يقرأ مدح الشعوبيين للبرامكة يجد أنهم يمدحونهم بحسن التدبير وبالعقل والمنطق ، ولاشك في أنهم يريدون بذلك أمرين : الأول التغطية على نسب البرامكة المغمور ، والثاني تغيير تقليد عربي أسهم الشعر في ترسيخه ، هو الحرص على الانتماء الى الأصول العربية ، والاعتزاز بهذا الانتماء ، وتقديمه على معاني المديح الأخرى .

لقد كان المدح بالنسب عند الشاعر العربي مظهراً من مظاهر الاعتزاز بالقومية ، ووسيلة من وسائل تأكيد الذات العربية ، لئلا تنصهر في مجتمع كثرت فيه الاجناس واصطرعت ، وصارت تتطلع الى تذويب الشخصية العربية ، وتنحيتها من مكان الصدارة .

فكما لم يجعل الشعوبيون من معانيهم المدح بالاصل وبالنسب تعفية منهم على هذا التقليد العربي ، وتذويبا للشخصية العربية في خضم الأجناس الأخرى ، بالغ الأدباء العرب في تأكيد هذا المعنى في مديحهم ، والتفوا حول الشخصيات العربية يُطرون انتماءهم العربي ، ويمدحونهم بشرف الأصل ، ورفعة النسب[١٨] ، وما فعلوا ذلك الا حفاظاً على الشخصية العربية ، وحماية لها من ان تذوب وتتلاشى ، ويظهر عليها الأعاجم ، ويذهبوا بريحها وقوتها .

الشعوبية والزندقة

لقد كان للحركة الشعوبية في العصر العباسي أثر بارز في موضوعات الشعر العربي ومضامينه ، فبعد أن كان الشعراء يترفعون عن المعاني القبيحة ، والأفكار المبتذلة ،

وينأون بشعرهم عن معالجة الرذيلة ، وتصوير الشهوات الرخيصة ، صار الشعراء الشعوبيون يستهينون بقيم الأخلاق ، ولا يقيمون وزناً للفضيلة ، فأصبح الفسق غرضاً من أغراضهم ، وأخذوا يكثرون من النظم فيه ، يريدون بذلك أشاعة الرذيلة في المجتمع العربي ، لتهي دعائمه ، وتندرس مثله وقيمه .

لقد أصبحت الزندقة والمجون غرضين جديدين من أغراض الشعر العباسي ، ابتدعها الشعوبيون ، وحاولوا فرضها على الحياة الأدبية ، لتشويه الصورة الرفيعة التي ظهر بها الشعر العربي في مختلف عصوره . لقد غاظ الشعوبيين ان يكون الشعر العربي شعراً نقياً ، يرفل بالفضيلة ، ويزخر بالقيم الرفيعة ، ويمثل بنقائه هذا نقاء المجتمع العربي ، ويعكس مبادئه واخلاقيته . فارادوا ان يتدنس هذا الشعر ، فتسف الفاظه ، وتقبح معانيه ، فكان لهم ذلك ، وبرز للوجود الأدبي شعر الزندقة والمجون .

ولم يكن الشعوبيون يرمون من شعر الزندقة والمجون الى تلويث الشعر العربي حسب ، بل هدفوا منه الى أمرين آخرين : الأول افساد المجتمع العربي ، ونشر الرذيلة فيه . والثاني تقويض تعاليم الاسلام ، والعمل على زعزعتها في نفوس ضعاف العقيدة ، ليتهيأ لهم احياء العقائد الدينية الفارسية القديمة ، الداعية الى الاباحية المطلقة ، واحلالها محل الدين الاسلامي الحنيف .

يروى أن مطيع بن إياس مرّ بيحيى بن زياد وحماد بن اسحاق وهما يتحادثان . فقال لها : فيمَ أنتما؟ قالا : في قذف المحصنات . فقال : أوَ في الارض محصنة تقذفها[١٩] .

وفي هذا الخبر ما يفصح عن حقيقة الشعوبيين ، وطبيعة الغاية التي يسعون الى تحقيقها . فهم لم يكونوا مبغضين للعرب حسب ، ساعين الى الادالة منهم ، وسلب السلطة من أيديهم ، وانما كانوا يبغضون الاسلام ، ويكيدون لتعاليمه . يتجلى ذلك بمجاهرتهم بالفسق ، واستخفافهم بتعاليم الاسلام ، وأوامره ونواهيه .

فالشعوبية والزندقة وجهان لعملة واحدة كما يقال ، أو هما مظهران لحركة واحدة ، كان للعنصر الفارسي اليد الطولى في ظهورها وتغذيتها في العصر العباسي .

ولم يخف هذا الترابط بين الزندقة والشعوبية على المفكرين العرب في ذلك العصر ، فقد أوضح الجاحظ الصلة الوثيقة بين التيارين فقال : «فانما عامة من ارتاب بالاسلام انما جاءه هذا عن طريق الشعوبية ، فاذا ابغض شيئاً ابغض اهله .

وان ابغض تلك اللغة ابغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنقل به حتى ينسلخ من الاسلام ، اذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وكانوا السلف»[20]

فالجاحظ في قوله هذا يعلل الترابط بين الشعوبية والزندقة فيقرر أن احداهما تفضي الى الأخرى ، ذلك لأن الشعوبية هي عداء للعرب ، والزندقة هي في جوهرها عداء عارم للاسلام ، ولما كان العرب مادة الاسلام ، وحملته ، والمنافحين عنه لزم ان يكون الشعوبي زنديقا لأنه يبغض العرب فيبغض معهم الدين الذي حملوه . وعملوا على نشره في المشرق والمغرب . كما لزم ان يكون الزنديق شعوبيا لأن بغضه للاسلام يدفعه الى أن يبغض العرب ، ويناصبهم العداء .

فالأدباء الشعوبيون اذن لم يكتفوا بمسخ القيم الاسلامية ولم يقفوا عند حد المجاهرة بالفسق والمجون ، والدعوة الى التحلل ، بل راحوا يهاجمون الفضائل العربية ، ويشوهون مفاهيمها ، فهاجموا مفاهيم المروءة والكرم والفروسية والشجاعة[21] ، وصاروا يحثون على نقائضها ، فكتب كثير منهم في تزيين البخل ، وتحبيبه الى الناس . وكان سهل بن هارون ممن كتب في هذا الموضوع[22] فانبرى الجاحظ للرد عليه وعلى امثاله من انصار البخل ، وضمن كتابه (البخلاء) صوراً ساخرة منهم ، مشيرا في ذلك الى أن البخل صفة متأصلة في نفوس الشعوبيين ، ولا عجب في ذلك فكما ان عداءهم للعرب قادهم الى معاداة الاسلام ، كذلك قادهم هذا العداء الى معاداة القيم والفضائل العربية كالكرم والوفاء والشجاعة وسواها .

ومن طريف ما اورد الجاحظ في هذا الباب قوله «قال ثمامة : لم أر الديك في بلدة قط الا وهو لاقط ، يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يلفظها قدام الدجاجة ، إلا ديكة مرو ، فاني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب ، قال : فعلمت ان بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جوهر الماء ، فمن ثم عم جميع حيواناتهم»[23] .

وازاء تحامل الشعوبيين على القيم الاسلامية والفضائل العربية وتسخيرهم الأدبَ شعرَه ونثرَه للتعبير عن هذا التحامل ، هب الغيارى من ابناء العروبة للوقوف بوجه المد الشعوبي والحد من انتشاره ، وانقاذ المجتمع العربي من شروره ومفاسده .

لقد كان طبيعياً امام مفاسد الشعوبيين أن يهب أدباءُ العرب الغُيُر للدفاع عن قومهم ومثلهم وأخلاقهم ، وممن كان له شرف هذا الدفاع الشاعرُ العربي يزيدُ المهلبي الذي نبه على خطر الشعوبية ودعا الخلفاء العباسيين الى استئصالها ، كما حذر من

الاعتماد على الأعاجم ، ووصفهم بالعبيد فقال مخاطباً ولاة الأمر[٢٤]

لما اعتقدتم أناساً لاحلوم لهم ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الاحرار نعمتكم حمتكم السادة المذكورة الحُشُدُ
قوم هم الجِذْمُ والأنساب تجمعُهم والمجدُ والدينُ والارحامُ والبلد
ان العبيد اذا اذللتهم صَلَحوا على الهوان وأن أكرمتهم فَسدَوا
اذا قريش ارادوا شدّ ملكِهم بغير قحطان لم يبرح بها أَوَدُ

● الغزل الماجن تيار شعوبي

لقد ترك التيار الشعوبي طابعه الواضح على الشعر العربي في العصر العباسي ويستطيع الدارس ان يتلمس مظاهر هذا الطابع ، ويضرب عليه الأمثلة الكثيرة.

فمن هذه المظاهر التوسع في الغزل المكشوف ، واصطناع الالفاظ النابية فيه ، وكان الشاعر العربي يترفع عن هذا الضرب من الغزل ، وينأى بشعره عن أن يشتمل على لفظ ناب ، او كلمة رخيصة ، بل لقد كان الشاعر العربي يحترم المرأة ، ويمحضها اصدق الحب ، واعمق الوفاء ، ويصوغ لها اعذب الشعر ، فاذا ذكر شيئاً من محاسنها لم يتبذل في حديثه ، ولم يجاوز حدود الحشمة.

أما الشعراء الشعوبيون فقد طلعوا على الحياة الأدبية بضرب من الغزل الحسي الذي لا حشمة فيه ولا وقار ، ولا أثر لعاطفة صادقة ، أو حب جاد ، وكان غزل بشار ، وحماد عجرد ، والحسين بن الضحاك وغيرهم مثلاً واضحاً على الغزل المكشوف الذي يأباه الخلق وتتقزز منه النفوس.

لقد كان الغزل الماجن «ظاهرة غريبة عن القيم العربية الاصيلة التي نجدها في الشعر قبل الاسلام وعن القيم الاسلامية التي نجدها بعد ذلك في شعر القرن الأول[٢٥].

يقول شوقي ضيف عن الغزل الماجن «هو غزل لم يكن يعرفه العرب في العصور الماضية ، عصور الوقار والارتفاع عن درك الغرائز النوعية . حقاً عرفوا الغزل الصريح ولكنهم لم يبلغوا مبلغ العباسيين في الصراحة ، وما وراء الصراحة من الجهر بالفسوق والاثم – دون رادع من خلق ، او زاجر من دين»[٢٦].

واذا كانت هذه الظاهرة غريبة عن البيئة العربية والروح الاسلامية الاصيلة . فما الباعث على توسع الشعوبيين فيها ؟

يذهب الدارسون الى ان الغزل المكشوف ظهر نتيجة ما اشاعته الشعوبية من أفكار وعقائد أجنبية بعيدة كل البعد عن الروح العربية والاسلامية ، مثل الزندقة وما انطوت عليه من نزعة الى الالحاد ودعوة الى الخروج عن الدين والتحلل من فرائضه .. وكالمذاهب الفارسية القديمة التي تبيح اللذة ، وتدعو الى الفسق والفجور كالمذهب المزدكي .

والحقُّ ان الزندقة مرتبطة بالمجون ، وأن الزنادقة كانوا مجاناً يسرفون في تعاطي اللذة ، ويمعنون في الجري في مضمار العبث .

لقد بث الزنادقة والمجان اخبارهم وعقائدهم واتخذوا من الشعر وسيلة الى ذلك وذهبوا يحرضون الشباب على اللذة ، ويرغبونهم في انتهابها وأن اداهم ذلك الى الخروج عن القيم والفضيلة ، وتعاليم الدين ، فبشار يقول مثلاً :

قالوا : حرام تلاقينا فقلت لهم ... ما في التلاقي ولا في قبلة حرج
مَن راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وكان بشار يحرض الفتيان على ملاحقة النساء ، ويقول لهم لا تيأسوا منهن ، يقول :

قاس الهموم تنل بها نُجُحا ... والليل ان وراءه صُبُحا
لا يؤيِسَنّك من مخبأة ... قول تغلظه وان جرحا
عسر النساء الى مياسرة ... والصعب يمكن بعدما جمحا

فعن طريق الشعوبيين المجان انتشر شعر المجون ، وشاع الغزل الفاضح في البيئة العربية ، وقد كان بشار بن برد رأس عصبة المجان ، كما كان اكثر افراد هذه العصبة ينحدرون من أصول فارسية ، ولم يكن لهم من غرض من نشر هذا التيار الادبي الا افساد المجتمع وغزو الدين الاسلامي في عقر داره او في الارض العربية التي ظهر فيها واشرقت شمسه على ربوعها .

على ان طائفة المجان هذه لم تكن تنشر داءها الوبيل في المجتمع العربي من غير ان

تلق رادعاً او تجابه بزجر او عقوبة ، بل ان الخلفاء العباسيين كانوا يقظين لما تهدف اليه هذه العصبة من الشعراء الشعوبيين فلم يقرّبوا احداً منهم ولم يتوانوا عن مطاردتهم وحسم شرهم .

فالمنصور أبعد بشار بن برد ، وشدد النكير عليه ، مما حمل بشاراً على هجائه ، ودفعه الى الوقوف في صف مناوئيه . يقول بشار مخاطباً أبا جعفر المنصور[٢٧]

أبا جعفر ما طول عيش بدائمْ ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى ويصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الاعاجم
فرمْ وَزَرا ينجيك يا ابن سلامة فلست بناج من مضيم وضائمْ

ولم يختلف موقف المهدي من الشعوبيين المجان عامة ومن بشار خاصة عن موقف المنصور ، فقد نهاه عن الغزل المكشوف والتعرض للنساء بعد ان اشتكى اليه جماعة من أهل الدين ، ما كان بشار يذيعه من شعر ماجن خليع ، لاحياء فيه ولا تذمّم .

قال سوار بن عبدالله ومالك بن دينار : ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة – يعني البصرة – الى الفسق من اشعار هذا الاعمى ، وقال : واصل بن عطاء : ان من اخدع حبائل الشيطان واغواها لكلمات هذا الملحد الاعمى[٢٨]

ولما لم يرعو بشار عن المضي في تيار الغزل الفاحش وصار يجهر بالزندقة أمر به المهدي فجلد ، ثم مات متأثرا بالسياط .

لقد كان الغزل الماجن اذن تياراً ادبياً انشته الشعوبية الفارسية فضاقت به صدور العرب وضجوا بالشكوى منه ، فوقف الخلفاء في سبيله وعاقبوا متعاطيه ، محاولة منهم انقاذ المجتمع العربي من تيار أدبي اجنبي رام تدنيس البيئة العربية وتقويض دعائم الاسلام .

وعلى الرغم من تقزز المجتمع العربي من شعر المجون ، وجدنا بعض الشعراء العرب ينساقون في تياره ، ويتورطون في نظم شيءٍ منه ، ومن هؤلاء آدم حفيد عمر بن عبدالعزيز الذي قال هذه الابيات :

اسقني واسق خليلي في مدى الليل الطويل

من ينل منها ثلاثاً ينس منهاج السبيل
فمتى ما نال خمساً تركته كالقتيل
قال لمن يلحاك فيها من فقيه او نبيل
أنت دعها وارجُ اخرى من رحيق السلسبيل

فلما جلده المهدي قال «والله ما اشركت بالله طرفة عين، ومتى رأيت قرشياً تزندق؟ ولكنه طرب غلبني. وشعر طفح على قلبي»(٢٩)

الفحش في الهجاء والاستكانة في المديح تياران شعوبيان

ومن المظاهر التي تركتها الشعوبية في الأدب العربي مابرز من اتجاه جديد في فن الهجاء هذا الفن الذي عرفه الشعر العربي في مختلف عصوره على نحو مهذب محتشم لاتصطنع فيه البذاءة ولايهبط الى درك الخوض في الاعراض.

لقد كان الهجاء في الشعر العربي ذا غرض تاديبي تهذيبي يلجأ اليه الشاعر ليقوم ماقد يظهر في اخلاق بعض الرجال من عوج وانحراف وتنكب للمثل العربية السامية من كرم ووفاء ، لذا اننا لانقرأ في هجاء الشعراء الذي غبروا قبل العصر العباسي الا وصفا للمهجو بالجبن او البخل او الغدر كما لانجد في هذا الهجاء لفظا بذيئا او كلاما رخيصا ينال من العرض او يفحش في الوصف لان الخلق العربي يابى هذا ويرفض ان ينحط الى فحش او اسفاف.

وقد ادى الهجاء في الشعر العربي غرضه اذ كان الناس يخشون السنة الشعراء ويحرصون على تجنب مايجلب اليهم الهجاء،ويتسابقون الى ارضاء الهجائين لئلايذيع عنهم انهم على خلاف مايتطلبه المجتمع من عادات و تقاليد ومايرتضيه منهم من سيرة وسلوك. وما اخبار الحطيئة ببعيدة منا في هذا الشأن فقد كان مرهوب الجانب سليط اللسان يشهر بكل من يتنكب عن الاخلاق العربية وعلى الرغم من عفة هجاء الحطيئة هذا نجد بعض مهجويه.وهو الزبرقان بن بدر يشكوه الى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيحبسه الخليفة ثم يطلقه بعد ان وعد الخليفة بالايعود الى الهجاء.

لقد تأثر الهجاء قبل العصر العباسي بالقيم العربية السائدة يوم كان المجتمع العربي خالصا لاتكدره اوضار الفرس وغيرهم من الاجانب الذين دخل بعضهم الحياة العربية وفي نيتهم افسادها وهدم كل ماهو عربي فيها.ولاغرو في ان يتأثر الهجاء في العصور الاولى بالحياة العربية فهو في ذلك كالمديح تماما اي ان كليهما يتأثر بالمثل والقيم التي يؤمن بها المجتمع مع فارق بسيط هو ان المدح يصور هذه المثل الخلقية والاجتماعية تصويرا ايجابيا اما الهجاء فيصورها تصويرا سلبياً. فالهجاء كما يقول باحث معاصر «يصور مثله الاعلى ولكنه يصوره خلال سخطه وغضبه واشمئزازه واحتقاره فيصوره بطريق غير مباشر ، حين يصوره المادح بطريق مباشر»[٣٠]

ولما حل القرن الثاني الهجري وغلب المتهكون من الاعاجم على الحياة الادبية ظهر اتجاه جديد في الهجاء اذ تحول هذا الغرض عن سبيله التهذيبي المحتشم الى «الافحاش والاستهزاء وقذف الاعراض والامعان في البذاءة امعانا يصل في بعض الاحيان الى حد يتحرج الباحث من روايته ، وهبط ذلك بقيمة الشعر فأصبح وهو ليس من الفن وانما هو في بعض صوره ليس الا مجموعة الفاظ السباب والبذاءة لفق بعضها الى بعض وليس فيها من صفات الشعر الا الوزن والقافية» .[٣١]

لقد تأثر الهجاء في العصر العباسي بالتيارات الاجنبية «التي نفذت الى البيئة وسرت في كيان المجتمع العباسي وتبدو سمات هذا التأثر واضحة فيما وصل اليه هذا الفن من فحش واسفاف خلق»[٣٢]

وكما تزعم الفرس الشعوبيون التيار الماجن في الغزل تصدروا كذلك تيار الاسفاف والبذاءة في شعر الهجاء ، وكانوا متأثرين في ذلك بالزندقة[٣٣] وببعض المذاهب الفارسية الاباحية الاخرى كالمزدكية يقول ابو الفرج الاصبهاني . كان في الكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون : حماد عجرد ، وحماد الراوية وحماد الزبرقان يتنادمون على الشراب ويتناشدون الاشعار ويتعاشرون معاشرة جميلة وكانوا كأنهم نفس واحدة يرمون بالزندقة جميعاً ، واشهرهم حماد عجرد وغير هؤلاء بشار بن برد وابان بن عبد الحميد والحسين بن الضحاك وقد انساق الى تيارهم بعض العرب كمطيع بن اياس ووالبة بن الحباب وصالح بن عبد القدوس» .

لقد اسف شعر الهجاء في تلك الحقبة واصبح مجموعة من الالفاظ البذئية التي لاسبيل الى روايتها ، وغدا هذا اللون من الشعر شاهدا واضحاً على ماكان يعانيه المجتمع العربي من الشعوبية التي استهانت بالقيم وعملت على نشر الرذيلة حقداً منها على الاسلام وعلى الامة العربية التي أهدت الى العالم مكارم الاخلاق وازاء التبذل والاسفاف اللذين أصابا شعر الغزل والهجاء على ايدي الشعوبين نجد حقيقة اخرى تجلت في فن المديح وهي ايضا مما ينكره الخلق العربي وتاباه المروءة العربية تلك هي الفاظ الملق والقاب التعظيم .

لم يكن العربي يعرف الملق ولا الزلفى وكان غالبا مايخاطب الخليفة بأسمه الصريح اما الفرس الذين عاشوا في ظلال الاكاسرة الجبابرة فقد مرنوا على اساليب الملق التي كانوا يتزلفون بها الى قادتهم وليس بغريب على الفرس ان يعظموا ملوكهم ويسبغوا

عليهم القاب التفخيم فهم كانوا يقدسون الملوك ويرفعونهم الى مرتبة الألوهية فكانوا لايذكرون اسماءهم الصريحة وانما يكنون عنها بالحضرة المقدسة او الخدمة الشريفة تنزيها لاسمائهم المقدسة عن ان تلوكها الألسنة(٣٤)

لقد نقل الفرس اذن هذا التقليد الى الادب العربي فامتلات قصائد الشعراء ورسائل الكتاب بالفاظ الملق وهي الفاظ يترفع عنها العربي ، ويأبى ان يتفوه بشيء منها اعتزازاً بكرامته واعتدادا بنفسه ومن هنا نجد الكتاب الفرس يؤثرون المبالغة في مخاطبة الخلفاء والامراء ويتذللون امامهم ويقبلون الارض بين ايديهم وينعتونهم بنعوت التعظيم التى لم يألفها العرب كما انهم تبعاً لذلك كانوا يطيلون مقدمات الرسائل ليتسنى لهم ملؤها بالفاظ الضراعة والخضوع. فهذا ابراهيم بن سيابه يخاطب احد الوزراء ويستعطفه فيقول : للاصيد الجواد ، الواري الزناد الماجد الاجداد الوزير الفاضل الاشم الباذل اللباب الحلاحل ، من المستكين المستجير البائس الضرير...»(٣٥)

ثم يقول «فان رايت اراك الله ماتمنيت وأبقاك في خيرالا تزهد فيما ترى من تضرعي وتخضعي وتذللي وتخشعي فان ذلك ليس مني بتخيزه ولاطبيعة ولاعلى وجه تصنع ولاتخدع ولكنه تذلل وتخشع لمن التضرع له عز ورفعة وشرف»(٣٥ ، ٣٦)

وهكذا ملأ هذا الكاتب الفارسي رسالته بالفاظ الملق والاستكانة مما لم يألفه العرب،ولم يؤثر شيء منه في ادبهم ذلك لان الادب مرآة الامة،وليس من خلائق ابناء امتنا العربية ان يستكينوا لأحد ، او يتزلوا عن كرامتهم لأي مخلوق .

الأدب وبعض التقاليد الادارية في العصر العباسي

ان الدارس لادب العصر العباسي يجد ان بعضه متأثر بما اشاعه الفرس من تقاليد وعادات غريبة عن المجتمع العربي ، وبعيدة عن اخلاق العرب ، وطبيعة حياتهم .

ومن الغريب ان بعض المؤرخين المحدثين ، والمستشرقين منهم بوجه خاص عدوا تلك التقاليد مظاهر حضارية ، كان للفرس فضل نقلها الى الحياة العربية ، مع ان كثيرا منها كان عبئا ثقيلا على العربي ، ومصدرا لشكواه .

لقد تأثرت الحياة العربية في بعض جوانبها بالعادات الفارسية ، وقد صعب على العرب ان يقاوموا بعض تلك العادات ، ويتخلصوا من اوضارها ، على الرغم من

استيائهم الشديد منها ، واستنكارهم لظهورها في حياتهم .

وسنحاول في هذا المقال ان نعرض لشيء من تلك العادات ، ونبين ماكان لها من صدى واضح في ادب العصر العباسي .

فن تلك العادات ماتأثرت به الحياة السياسية ، وصارت تقليدا رسميا يراعيه الخلفاء ، ويحرصون على تطبيقه .

فالذي نعرفه عن العرب انهم كانوا لايحيطون زعماءهم بالقداسة ، ولا يبالغون في اجلالهم ، ولا يمنعون من رؤيتهم ومجالستهم ، والحديث اليهم ، بل انهم كانوا ينادونهم باسمائهم ، وربما عاتبوهم ، ووجهوا النقد اليهم . كما كان زعماؤهم يشجعونهم على ذلك ، ولا ينكرونه منهم .

وحين جاء الاسلام زاد هذا التقليد العربي رسوخا ، فكان النبي في اصحابه على جانب كبير من التواضع ، لايحتجب عنهم ، ولا يرفع مجلسه عليهم . وعلى نهجه سار الخلفاء الراشدون ، وبطريقته اقتدوا في معاملة الناس ، وتصريف شؤونهم ، وما ان حل العصر العباسي ، وتنفس الفرس الصعداء ، واتيح لهم ان يشاركوا في ادارة الحكم ، حتى طبعوا الدولة العربية الاسلامية بطابعهم ، وفرضوا عليها كثيرا من رسومهم وتقاليدهم ، محاولين بذلك تغيير وجه المجتمع العربي ، وطمس اصالته ، ليسهل عليهم بعد ذلك احياء دولتهم القديمة ، وبعث دياناتهم المندرسة .

وكان من أبرز التقاليد الفارسية التي ظهرت في الخلافة العباسية احتجاب الخليفة ، واحاطته نفسه بمظاهر العظمة والأبهة ، حتى انه لم يعد يظهر بين افراد الشعب ، الا في مناسبات خاصة ، كما كان ظهوره يعد حدثا كبيرا ، يجتمع الناس لشهوده ، ويتدافعون لرؤيته في خشوع ورهبة .

لقد صور الشعراء مواكب الخلفاء ، وتحدثوا عما كان يميز تلك المواكب من عظمة وجلال ، وما يظهره الناس لدى رؤيتها من خشوع ورهبة ، وحين نقرأ هذا الشعر نحس ان العربي كان يقبل هذه المظاهر الاجنبية على مضض ، وربما سخر منها ، وتذكر بالم ومرارة ماكان اسلافه يتمتعون به من ديمقراطية ، وماكانوا يعاملون به من تواضع ولين . ان الحضارة الجديدة التي يباهيهم بها الفرس ، هي التي حملت اليهم هذه الارستقراطية ، وفرضت عليهم الايروا الخليفة الا في احيان متباعدة ، ومن خلال موكب مهيب .

لقد صور الشعر اذن مواكب الخلفاء ومن ذلك وصف البحتري لموكب الخليفة المتوكل الذي خرج يوم عيد الفطر : وقد احاط به جيش كثيف من الجند والفرسان ، فاكفهر الجو ، واختفت الشمس وراء الغبار الذي اثارته سنابك الخيل ، اما الارض فقد مادت وخشعت اجلالا لذلك الموكب المهيب . وعندما ظهر الخليفة اضاء الكون بطلعته ، وشده الناس بمنظره فلم يملكوا غير التهليل والتكبير(٣٧) .

فأنعم بيوم الفطر عينا انه ... يوم أغر من الزمان مشهر
اظهرت عز الملك فيه بجحفل ... لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عددا يسير بها العديد الاكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدعي ... والبيض تلمع والاسنة تزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها ... والجو معتكر الجوانب اغبر
والشمس ماتعة توقد في الضحى ... طورا ويطفئها العجاج الاكدر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العثير
وافتن فيك الناظرون فاصبع ... يومي اليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها ... من انعم الله التي لاتكفر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا

وقال البحتري ايضا يصور موكب الخليفة المهدي ويشير الى الاحساس بالخشوع والرهبة اللتين كانا يحسها ابناء الشعب عند رؤيته ، حتى ان الدهشة لتعقد السنتهم ، فلا يجدون جواباً :

طلعة تملأ القلوب ووجه ... خشعت دون ضوئه الابصار
بهتوا حيرة وصمتا فلو قيل ... احيروا مقالة ما أحاروا

ان هذه الحالة من القداسة والرهبة التي كان الخليفة العباسي يحيط بها نفسه ، هي تقليد فارسي لم تكن الدولة العربية قبل هذا العهد تأخذ به ، ولم يكن الخلفاء قبل وقوعهم تحت التأثير الفارسي يظهرون فيه .

لم يكن يرضي الفرس ان يكون الخليفة في الرعية كأحدهم ، ولم يعجبهم ان

يتواضع لهم ، ويختلط بهم ، ويسوسهم بروح عربية اسلامية ، قوامها البساطة والعدالة ، فراحوا يبعثون تقاليد حكامهم القائمة على التجبر والتسلط ، فعزلوا الخليفة عن شعبه ، واقاموا بينه وبين الرعية حجابا صفيقا ، وأقاموا على ابوابه الجند والحجاب .

لقد كان الحجاب اذن تقليدا فارسيا جديدا لم تألفه الدولة العربية قبل تقليد الاعاجم ، والتأثر بانظمة حكمهم[٣٨] .

لقد كان النبي يكره الحجاب وينهى عنه ، وكان الخلفاء الراشدون يسيرون على نهجه ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا ولى عاملا على اقليم شرط عليه عدة شروط منها الايركب برذونا ولايتخذ حاجبا . وكان يوصي عماله فيقول لهم : اياكم والحجاب واظهروا امركم بالبراز[٣٩] .

فالحجابة اذن تقليد فارسي اشاعه الفرس في الدولة العربية ، وزينوه للخلفاء ، وكانوا يختارون غير العرب لهذا المنصب ولعلهم هدفوا من ذلك الى كبح العرب ، واشعارهم بالمهانة ، ذلك لان هؤلاء الحجاب كانوايكرمون امثالهم من الاعاجم ، ويسمحون لهم بالدخول على الخلفاء ، في حين كانوا يطيلون حجب العرب ، ويجبرونهم على البقاء مدة طويلة في انتظار لقاء الخليفة .

لقد شعر سعيد بن حميد بان الحجاب يقصدون اذلال الاحرار ، عندما يؤخرون دخولهم على الخليفة . يقول هذا الشاعر[٤٠] .

وفتى ذي خلائق معجبات ... افسدتها خلائق البواب
وكريم قد قصرت بايادیه ... عبيد تسيء للأداب
لااری للكريم ان يشتري ... الدنيا جميعا بوقفة بالباب
ان تركت العبيد والحكم فينا ... صار فضل الرؤوس للاذناب
فأحلوا اشكالهم رتب الفضل ... وحط الاحرار عفر التراب .

ان هذا الشاعر يتذمر من جفوة الحاجب وغلظته ، وهناك شعراء أخرون قد عبروا عن المرارة التي كانوا يجدونها بسبب المعاملة السيئة التي كانوا يلقونها من الحجاب . يقول ابو علي البصير[٤١] .

أقف ببابك في جفوة ... يلون لي تولــه الحاجب

فيطمعني تارة في الوصول وربما قال لي : راكب
فاعلم عند اختلاف الكلام وتغليطه انه كاذب

ويقول ابو تمام(٤٢) .

سأترك هذا الباب مادام اذنه على ماأرى حتى يلين قليلا
اذا لم نجد للاذن عندك موضعا وجدنا الى ترك المجيء سبيلا

ان نظام الحجابة الذي يعد من التقاليد الفارسية التي دخلت الدولة العربية ، كان تقليدا منافيا للاخلاق العربية ، ومناقضا لروح الاسلام ، بل انه يعد نكسة في التنظيم الاداري العربي ، وليس مظهر تطور فيه ، كما يزعم بعض المؤرخين الذين تنقصهم النظرة الفاحصة ، ويعوزهم التجرد والانصاف .

الشعوبية وتفريق الصف العربي

ان من ابرز اهداف الحركة الشعوبية ازالة الحكم العربي ، واقامة دولة فارسية ، تقوم على العنصر الفارسي وحده ،وتستبعد سائر القوميات التي كان يموج بها المجتمع العربي ، والتي اظلها الاسلام وجمع بينها على الاخاء والمحبة .

لقد كان هذا الهدف في مقدمة الاهداف التي سعت الشعوبية الى تحقيقها ، وقامت من اجله بسلسلة اعمال وحركات ، برز بعضها في عصر الخلفاء الراشدين ، وظلت تتوالى في العصور الاخرى .

فاغتيال الخلفاء الراشدين الثلاثة عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، كان نتيجة مؤامرات شعوبية ، رامت الانتقام من العرب ، واضعاف قوتهم ، باغتيال قادتهم ، وما يتبع هذا الاغتيال من بلبلة وفوضى وحروب داخلية (٤٣)

كما ان القضاء على الحكم الاموي كان طموحا شعوبيا ، لان ذلك الحكم اذاق الشعوبيين الهوان ، وضيق عليهم الخناق ، فلم يستطيعوا في اثنائه ان يزاولوا ما زاولوه فيما بعد من اعمال الهدم والتخريب .

ومن الخطط التي لجأت اليها الشعوبية لتضعف العرب ، وتزيل حكمهم ، ماعمدت اليه من ضرب بعضهم ببعض ، وتحريض فريق منهم على فريق . فلم يكن يرضيها ان ترى العرب يدا واحدة ، او قوة متراصة ، فتسللت الى الفرق الاسلامية ،

وبث فيها من العقائد والافكار ماعمق الخلاف بين تلك الفرق ، وجرها الى التناحر . واللجوء الى السيف في بعض الاحيان[٤٤] .

وحين مال الخلفاء العباسيون الاوائل الى الامويين ، وعفوا عن زعمائهم واقطاب دولتهم ، لم يرض الشعوبيون عن ذلك ، ووجدوا في هذا التقارب بين البيتين العربيين خطرا عليهم . وتهديدا لمصالحهم . فسعوا الى تحريض العباسيين على الامويين ، وتذكيرهم بالإحن والاحقاد التي اوشك ان يطفئها الزمن .

دخل على السفاح الشاعر الفارسي سديف بن ميمون ، فوجد عنده سليمان بن هشام بن عبد الملك . فالتفت الى الخليفة وقال :

لا يغرنك ماترى من رجال ... ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها امويا

فالتفت اليه سليمان وقال : قتلتني ياشيخ . وقد تأثر السفاح فعلا بقول سديف ، وامر بقتل سليمان[٤٥] .

وكان شبل بن عبد الله الشاعر الفارسي ممن حرض ابا العباس السفاح على قتل الامويين ، والتنكيل بهم ، حين لاحت بوادر ميل هذا الخليفة اليهم ، مدفوعا الى ذلك بعاطفة قومية نبيلة ، وبنظرة سياسية صائبة ، تريد ان تجمع الصف العربي ، وتلم شعثه ، ليواجه الاعاجم ، ويفوت عليهم فرصة الاستئثار بالحكم .

دخل شبل بن عبد الله على السفاح فوجد عنده بعض الامويين ، وقد اكرمهم فبسطت لهم النمارق ، ووضعت لهم الكراسي ، فغاظ هذا المنظر الشاعر الفارسي ، ورأى في هذا التقارب بادرة وحدة عربية ، تمزق احلام الشعوبيين في اضعاف العرب ، والسيطرة عليهم . فقال هذا الشاعر الفارسي محرضا السفاح على الامويين ، ومذكرا اياه بما كان من وقائع :

اصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس
ذلها اظهر التودد منها ... ولها منكم كحز المواسي
ولقد ساءني وساء سوائي ... قربهم من نمارق وكراسي

ازلوها بحيث انزلها الله بدار الهوان والاتعاس[٤٢]

ان هذا الشاعر كشف القناع عن خوف قومه الفرس من توحد العرب ، واجتماع شملهم ، فقال للسفاح : ان تقريب الزعماء العرب ، قد ساءه وساء سواه من الاعاجم .

لقد حاول الفرس اذن ان يعزلوا العباسيين عن العرب ، بل حرضوهم على مطاردة زعمائهم ، والفتك بهم ، ليضعفوا الحكم العربي ، ويتمكنوا من اسقاطه .

ومن الامثلة على ذلك ، زيادة على قدمناه من شواهد ، ان السفاح استشار ابا مسلم الخراساني في العفو عن يزيد بن هبيرة ، احد القواد الامويين – وكان المنصور اخو الخليفة وقائده قد أمن هذا القائد العربي – فقال ابو مسلم : «ان الطريق السهل اذا القيت فيه الحجارة فسد ، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة» فأمر السفاح بقتله[٤٧] .

وكما عمل الفرس على الايقاع بين العباسيين والامويين ، محاولين بذلك اضعاف العرب ، والحيلولة دون وحدتهم ، سعوا كذلك الى ايقاع الفتنة بين العباسيين والعلويين . وقد تجلى ذلك في ان الفضل بن سهل حبذ للمأمون «البقاء في خراسان واتخاذ مرو عاصمة له ، وحمله على أخذ البيعة لعلي بن موسى الرضا بولاية العهد»[٤٨] . يقول مؤلف كتاب (الشعوبية حركة مضادة للاسلام والامة العربية) : «وقد ادرك القائد العربي نعيم بن خازم مؤامرة الفضل هذه ، فذهب الى المأمون ، وفصل له ابعاد المؤامرة التي حاكها الفضل بن سهل ، ثم قال مخاطبا الفضل نفسه : انك تريد ان تزيل الملك عن بني العباس الى ولد علي ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويا ، ولولا انك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده ، وهي البياض الى الخضرة وهي لباس كسرى والمجوس»[٤٩] .

ولم يسلم البيت العباسي نفسه من محاولة شقه ، وبث الفرقة بين ابنائه ، فقد لعب بنو سهل والفضل منهم خاصة دورا كبيرا في تهديم مقومات هذا البيت ، واشعلوا الفتنة بين الامين والمأمون تلك الفتنة التي انتهت بقتل الامين ، وتخريب بغداد .

لقد حبب الفضل بن سهل للمأمون البقاء في خراسان ، بعد مصرع الأمين ، ليتسنى له عزله عن العراق ، وعما يجري فيه ، وعندما تمردت بغداد على المأمون ، ونصبت عمه ابراهيم بن المهدي خليفة مكانه ، ظل الفضل يخفي ذلك عن المأمون

«من اجل ان يستفحل الأمر ، ويحجز المأمون في خراسان ، ثم يقضي عليه ، ويعيد الملك للفرس»[٥٠] .

وهكذا عاشت الشعوبية في المجتمع العربي ، وكانت وراء محاولات التخريب ، وحركات الهدم التي توخت تقويض الحكم العربي واضعاف الامة العربية . وكانت في محاولاتها هذه تتستر مرة بالولاء لهذا البيت العربي او ذاك ، وتتخفى حينا بهذه العقيدة او تلك ، وكان ولاؤها الوحيد للفرس ، كما كانت عقيدتها الحقة بغض الاسلام ، والسعي الى احياء الديانات الفارسية القديمة .

الشعوبية والدين الاسلامي

كان الدين الاسلامي غرضا لسهام الشعوبيين ومرمى كيدهم وحقدهم فركزوا حملتهم عليه ، واتجهو الى مثله وقيمه : ينالون منها ، ويحاولون احلال عقائدهم وافكارهم محلها .

وكانت الحملة على الدين الاسلامي قد اتخذت مظاهر عدة واتجهت اتجاهات مختلفة، سنحاول هنا الاشارة الى بعضها في شيء من اجمال .

فالحلول مبدأ قال به الشعوبيون وكان مظهرا من مظاهر نيلهم من الدين ووسيلة من وسائل الدس عليه . ويعني الحلول ان الله روحه او نوره يحل في قلوب بعض الاشخاص،وهذه فكرة فارسية قديمة ظهرت في دين ماني ثم عادت الى الظهور بعد أن دخل الفرس الاسلام .[٥١]

لقد اتخذ الشعوبيون هذه الفكرة وسيلة الى ضرب مبدأ التوحيد والطعن في آل البيت كما استغلوها في رفع بعض الاشخاص الى مرتبة الالوهية . فادعى انصار ابي مسلم الخرساني ان روح الاله حلت فيه فصار ربا لذلك لم يقتل وان الذي قتله ابو جعفر المنصور كان شيطانا بصورة ابي مسلم وقد أشاعوا هذه الفكرة عن ابي مسلم ليبعثو الثقة في انصاره فيظلوا يرتقبونه ويعيدوا على يديه الملك الكسروي القديم[٥٢] .

وقد استغل الشعوبيون فكرة الحلول في هدم المجتمع العربي واباحة المحرمات فيه ؛ كما تستروا بها فأبطلوا بعض الفرائض،في ذلك يقول البغدادي : «ومنهم الذين عبدوا

كل ما استحسنوا من الصور على مذاهب الحلولية في دعواها حلول روح بزعمهم في الصور الحسنة». (٥٣) وكانوا ايضا يتذرعون بفكرة الحلول فيسوغون مايقومون به من منكرات . فالفرقة التي تعرف بالحلمانية تدعى حلول الاله في الاشخاص ذوي الصور الحسنة فكان ابناء هذه الفرقة اذا رأوا صورة حسنة سجدوا لها. (٥٤) وفي هذا كما لايخفى هدم للمجتمع واشاعة للفساد فيه ، واضفاء صفة الشرعية على كثير من اعمال التهتك والمجون.

وفكرة التناسخ فكرة اخرى اعتمد عليها الشعوبيون لتشويه الدين الاسلامي ، والطعن في بعض اصوله وعقائده . والتناسخ هو رد الروح الى بدن غير البدن الاول وقد استغلوا هذه الفكرة في انكار مبدأ المعاد ، وانكار الجنة والنار ، وزعموا ان العقاب والثواب يكونان في الحياة الدنيا ذلك لان ارواح الاشرار تنقل الى اجساد الاشرار فيكون عيشهم منغصا ومكدرا كما ان أرواح الابرار تنقل الى اجساد الصالحين فيكون عيشهم رضيا هانئاً. (٥٥)

ويذهب باحث معاصر الى ان فكرة «البداء» هي اخطر الافكار الدينية التي تستر بها الشعوبيون ونفذوا منها الى الطعن في الدين الاسلامي،كما استغلوها في تبرير اعمالهم ، واضفاء الشرعية على انماط معينة من سلوكهم.

والبداء أن الله تعالى يأمر بالأمر ثم يبدو له فيأمر بغيره. (٥٦)

لقد استغل الشعوبيون هذه الفكرة فدفع بعض زعمائهم الاغرار الجهال الى بعض الحروب ملوحين لهم بأن الله تعالى كتب لهم النصر فيها ، وحين هزموا في تلك الحروب اخبروهم ان الله بدا له غير ماوعدوهم به من نصر او ظفر،وفي هذا كذب على الله وافتئات على امره الذي لاراد له ولا محيص منه . ومن الامثلة على ذلك ان صاحب الخطابية حين وجه أصحابه لمقاتلة ابي جعفر المنصور قال لهم «قاتلوهم فان قصبكم يعمل فيهم عمل الرماح والسيوف ، وسيوفهم وسلاحهم لاتضركم ولاتعمل فيكم ، فقدمهم عشرة عشرة للمحاربة فلما قتل منهم نحو ثلاثين رجلا قالوا له : ماترى يحل بنا من القوم؟ قال لهم : اذا كان قد بدا لله فيكم فما ذنبي؟» (٥٧)

وقد استغل المشعوذون والدجالون والانتهازيون فكرة البداء هذه فكانوا اذا وعدوا اتباعهم بشيء ثم لم يتحقق اخبروهم ان الله تعالى بدا له غير ماوعدهم به ، واذا انقلبوا من مبدأ الى مبدأ ، او تحولوا من الرأي الى نقيضه عزوا ذلك الى فكرة

البداء .

وكانت فكرة التأويل من المبادئ الاساسية التي اعتمدت عليها الشعوبية في محاربة الاسلام ، واساس هذه الفكرة ان لكل شيء ظاهراً وباطناً وقد طبق الشعوبيون ذلك على القرآن الكريم فتأولوه بما يخدم اغراضهم ، ويؤيد مايذهبون اليه من اراء .(٥٨)

وكما كان للقرآن الكريم في زعم الشعوبية ظاهر وباطن فان بعض فرقها استغلت ذلك ، وادعت النبوة لمؤسسها زاعمة ان الله بعث محمداً بالتنزيل وبعث زعيمها بالتأويل .

واتاحت فكرة التأويل للشعوبيين الحاقدين على الاسلام فرصة واسعة لتفسير كثير من الايات الكريمة تفسيراً يتفق مع اغراضهم ويحقق لهم النيل من اعلام الصحابة ومشاهير الأئمة والصالحين .

واذا أنعمنا النظر في تقسم الشعوبيين القرآن الكريم الى ظاهر وباطن ، وفي قصرهم معرفة الباطن على اشخاص باعيانهم وجدنا انهم يرمون من ذلك الى تقييد المسلمين وشل نشاطهم وتجميد اذهانهم وفي ذلك كما يقول احد الباحثين هدم للاسلام وتجميد للحضارة العربية .(٥٩)

ان الاسلام دين يحث على المعرفة ويرفع درجة العلماء ولاشك في ان تدبر القران الكريم ، والغوص على الكنوز المودعة فيه هو مما يرضي الله ورسوله ، ومما يفتح امام العرب والمسلمين افاق العلم ، ويهيء لهم اعمال العقل .

تلك هي الاسس التي اعتمدت عليها الشعوبية في مهاجمة الاسلام ، وتقويض دعائمه والتحول بمعتقداته عن جوهرها الصافي ، وفلسفتها القويمة ، الى معتقدات تفوح منها روائح الديانات الفارسية القديمة التي تقوم في اكثرها على الخرافة والشعوذة، وتنحو في مجملها منحى الهدم والفوضى والفساد .

وواضح ان أئمة المسلمين لم يتركوا تلك المبادئ تشيع وتنتشر وتحقق اغراض اصحابها من الحاقدين على الاسلام بل تجردوا لدفعها والرد على مفتريها ، وكان الامام جعفر الصادق في مقدمة من تصدى لاصحاب هذه البدع ، فابطل اراءهم بالحجة الدامغة والدليل القاطع ، وفعل مثله الامام ابو حنيفة والشافعي واحمد بن حنبل وغيرهم من الفقهاء الذين عاصروهم أو جاءوا بعدهم ، فكان لصنيعهم اكبر الاثر في ان يبقى وجه الاسلام ناصعا كما اراده الله تعالى ، وكما بلغ به رسوله الامين .

مكانة العرب عند الشعوب الاسلامية

نزل القرآن الكريم بلغة العرب وندبهم الله لحمل رسالة الاسلام ونشر تعاليمه في المشرق والمغرب . فقد جاء في التنزيل العزيز قوله تعالى : «وهذا لسان عربي مبين» وقوله تعالى «انا انزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون» .

إن ظهور الاسلام في ارض العرب ونزول القران الكريم بلغتهم يعني اصطفاء الله سبحانه وتعالى العرب من بين الشعوب لحمل الرسالة والدفاع عنها .

كما أن اختيار العرب لحمل الرسالة انما يرجع الى أن العرب كانوا قد بلغوا من النضج الفكري مرحلة تجعلهم قادرين على فهم الاسلام ، وحمله ، والمنافحة عنه ، والتصدي لحجيج خصومه والرد عليها .

وقد خاطب الله تعالى العرب في محكم كتابه العزيز ، موضحاً لهم مكانتهم من الاسلام ومبيناً دورهم في حمل اعباء الرسالة ، فقال عزّ من قائل : «وكذلك جعلناكم أمة واسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً» وقال تعالى «وكذلك انزلناه حكما عربياً» وقال تعالى : «وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون» .

وقد أثرت عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم احاديث كثيرة تشيد بمكانة العرب وتحملهم مسؤولية نشر الاسلام ، وحمايته ، والدفاع عنه ، فقد روى الامامان البخاري ومسلم ان النبي قال : «لايزال هذا الامر في قريش ما بقي منهم اثنان» وقريش من العرب ، ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم كنى بقريش عن العرب جميعاً .

وسار الخلفاء الراشدون سيرة النبي في النظر الى العرب على انهم حملة الرسالة ، والمكلفون بنشرها ، ولذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : ان العرب مادة الاسلام ، كما كان ينهى عن جلدهم ، لئلا يلحقهم ذل ، او ينزل بهم هوان(٦٠) .

وجرى الائمة والفقهاء والمسلمون المخلصون من غير العرب على ذلك فاحترموا العرب ، ورفعوا من شأنهم ، وقرنوا بينهم وبين الاسلام فكما أشربوا حب الاسلام كذلك أشربوا حب العرب وجبلوا على الغضب لهم ، والدفاع عنهم ، والتحرز من

ارتكاب ما يؤذيهم او يسيء اليهم .

فالامام ابو حنيفة كان يرفض ان يأخذ الجزية من العرب وكان يقول في ذلك «لا آخذها من العرب لئلا يجري عليهم صغار»[٦١].

وكما احترم المسلمون المخلصون العرب ، واحبوهم كفاء قدمهم في الاسلام ؛ ووفاء لما كان منهم من جهاد في سبيل نشره ، كذلك احبوا لغة العرب ، واقبلوا على تعلمها ، لأنها لغة القرآن الكريم ، ووعاء الشريعة السمحة . وقد بلغ من حبهم للعربية أنهم فضلوها على لغاتهم ، بل هجروا لغاتهم من اجلها ، فكان الزمخشري يقول : «والله احمد على ان جعلني من علماء العربية ، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وابى لي ان انفرد عن صميم انصارهم وامتاز وانضوي الي لفيف الشعوبية وانحاز ، وعصمني من مذهبهم الذي[٦٢] لم يجد عليهم الا الرشق بألسنة اللاعنين ، والمشق باسنة الطاعنين» وكان البيروني يقول «لأن اهجى بالعربية احب الي من أن أمدح بالفارسية» .

نستنتج من ذلك أن كان هناك ترابط بين العروبة والاسلام ، بل لقد تداخل الامر بينهما «حتى اصبحت كلمة عربي تعني كلمة مسلم»[٦٣] فأهل بخارى اعتذروا من قلة الضرائب ، وكتبوا الى الوالي يقولون له : «ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً»[٦٤] اي أصبحوا مسلمين .

وعلى الرغم مما تهيأ للعرب من مكانة ، وما ظفروا به من حب واحترام الشعوب التي اسلمت ، فان ذلك لم يبطرهم ، ولم يجعلهم يستشعرون التعالي على غيرهم ، او لم يفقدهم انسانيتهم الرحبة ، فلم يكونوا في الحقيقة الا افراداً عاديين في المجتمع العربي الاسلامي ، ولم يعاملهم الخلفاء الا كما كانوا يعاملون المسلمين الاخرين ، ذلك لأن الاسلام ساوى بين معتنقيه ، ولم يفضل بعضهم على بعض في الحقوق والواجبات .

لقد قامت معاملة الخلفاء للعرب على أساس من تعاليم الاسلام ، وكان الرسول والخلفاء الراشدون هم القدوة لمن جاء بعدهم في هذا الشأن ، فعمر بن الخطاب كان يساوي بين العربي ومولاه في العطاء ، وحين جاءه بنو عدي وهم عشيرته ، طالبين منه ان يجزل عطاءهم ، غضب عمر وقال لهم «بخ بخ بني عدي اردتم الاكل على ظهري ، وأن اهب حسناتي لكم ... والله لئن جاءت الأعاجم بعمل ، وجئنا بغير عمل ، لهم اولى بمحمد منا يوم القيامة ، فان من قصر به عمله لم يسرع به

نسبه»[٦٥] .

ولم تختلف سيرة الخلفاء الامويين والعباسيين عن سيرة الرسول والراشدين في ذلك ، فقد جروا جميعاً على مساواة العرب بغيرهم من المسلمين بالنظرة والمعاملة.

ولابد هنا من الاشارة الى أن الخلفاء الأمويين لم ينظروا الى الاعاجم نظرة احتقار كما ذهب الى ذلك بعض المؤرخين ، وانما كانوا يفعلون ذلك مع الشعوبيين الذين كشفوا عن حقدهم على العرب ، وصرحوا بما كانوا يضمرون لهم من عداء . ان الحكم على العصر الاموي بانه عصر ظلم الاعاجم ، وقسا عليهم لهو حكم عام ، لا يخلو من اسراف ، ففي ذلك العصر بدأ نجم الاعاجم يتألق ، وصاروا يتبوأون مراكز مهمة في الدولة ، كما ظهر منهم علماء وكتاب ولغويون ، ولو لم يكن العصر الاموي ، ككل عصور الحكم العربي ، يتسم برحابة النظرة ، وبالمساواة بين اتباع الدولة ، عرباً كانوا ام غير عرب ، لما برز من الاعاجم من برز في نواحي الحياة المختلفة .

غير أن من الحق ان نقرر ان الخلفاء الامويين لم يتهاونوا في أمر الشعوبيين ، وانما تصدوا لهم ، واخفتوا صوتهم .

لم يكن في نظرة العرب الى الفرس او غيرهم من الاعاجم شيء من تعال ، أو اثارة من عصبية ، وانما كانوا يحتضنون جميع الامم التي شاركتهم الاسلام ، وشاطرتهم التفيؤ بظلال الدولة العربية ، ويمنحونهم اصفى الحب ، وأعمق مشاعر الاخاء .

الا أن الشعوبيين لم يرضهم ان يرفع الله قدر هذه الامة ، فمضوا يكيدون لها ، ويخططون للادالة منها ، مصطنعين في ذلك اخس الوسائل ، واخبث الاساليب .

ولعل مما يكفي هنا ان نشير الى أن الشعوبيين قد ثارت ثائرتهم عندما اقدم عبد الملك بن مروان على تعريب ديوان الخراج ، وكان يكتب بالفارسية ، ورأوا في هذا التعريب مظهر قوة للدولة العربية وبادرة استغناء عن العنصر الفارسي ، فقالوا لصالح ابن عبد الرحمن ، وهو الذي عرب الديوان ، وكان يعرف العربية والفارسية : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ، ثم بذلوا له مئة الف درهم على أن يظهر عجزه عن تعريب الديوان[٦٦]

أليس في هذا الخبر دليل كاف على عنصرية الشعوبية ورغبتها القوية في اضعاف الامة العربية والحيلولة دون مضيها في تأدية رسالتها الانسانية .

التعصب على العرب

حين هزم الفرس سياسياً ودينياً ولغوياً على أيدي العرب ، أشرأبت اعناقهم الى وسيلة يطاولون بها العرب ، ويظهرون بها عليهم ، فلم يجدوا غير العلم ، لذلك اقبلوا على تعلم اللغة ، ثم التضلع منها ، والتأليف فيها ، كما انصرفوا الى علوم الفقه والدين ، يبذلون وسعهم في التبحر فيها ، والوقوف على دقائقها ، فبرز منهم في هذه المجالات وغيرها علماء كثيرون .

وعلى الرغم من الاثار السيئة التي تركها الشعوبيون من العلماء في الفكر اللغوي والادبي والديني ، فان كثيراً من العلماء الاعاجم قد اخلصوا لوجه العلم ، وتميزت أعمالهم بالعمق والموضوعية .

وحين وجد الشعوبيون ان الميدان العلمي يزخر بالعلماء الاعاجم ، ركبهم الغرور ، وراحوا يفترون على اصالة العلوم العربية ، ويظهرونها وكأنها مدينة للفكر الاجنبي ، او مقتبسة منه .

بل أن بعض هؤلاء الشعوبيين على اختلاف عصورهم قد زعموا أن العرب لم يكن لهم في بعض العلوم نصيب ، ولم يتألق لهم فيها نجم . وذهب هؤلاء الشعوبيون يخترعون الاخبار التي تدل على خلو الساحة العلمية في هذه المدينة العربية أو تلك ، من عالم عربي ، ويظهرونها ممتلئة بالأعاجم .

فهذا صاحب العقد الفريد يقول : «قال ابن ابي ليلى : قال لي عيسى بن موسى ، وكان ديّاناً شديد العصبية للعرب : من كان فقيه البصرة ؟ قلت : الحسن البصري . قال : ثم من ؟ قلت : محمد بن سيرين . قال : فما هما ؟ قلت : موليان قال : فمن كان فقيه اهل مكة ؟ قلت : عطاء بن ابي رباح ومجاهد بن جبير وسليمان ابن يسار قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موال . قال : من فقهاء المدينة ؟ قلت : يزيد بن اسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن ابي نجيح . قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موال فتغير لونه ثم قال : فمن افقه اهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأي وابن ابي الزناد . قال : فما كانا ؟ قلت : من الموالي فاربد وجهه ثم قال : فمن فقيه اليمن ؟ قلت : طاوس بن كيسان وابنه وابن منبه . قال : فمن هؤلاء ؟ قلت : من الموالي فانتفخت اوداجه وانتصب

قاعدا ثم قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت : عطاء بن عبد الله الخراساني . قال : فمن كان عبد الله هذا ؟ قلت : مولى ..... فازداد وجهه تربداً واسوداداً حتى خفته . ثم قال : فمن كان فقيه الشام ؟ قلت : مكحول . قال : فما كان هذا ؟ قلت : مولى قال : فتنفس الصعداء من شدة الغضب ، ثم قال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ قلت : فوالله لولا خوفه لقلت : الحكم بن عتبة وعمار بن ابي سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر ، فقلت : النخعي والشعبي ، قال : فما كانا ؟ قلت : عربيان . قال : الله أكبر وسكن جاشه»(٦٧)

يقول باحث معاصر معلقاً على هذا الخبر «هذا ما ذكره صاحب العقد ، وفيه من المبالغة واحكام الصنعة ، والتعصب على العرب مالا يخفى . ويقيني انه من وضع الشعوبية التي عنيت بذكر الموالي دون العرب ، اظهاراً لفضلهم ، واشادة بمجدهم في هذه الحقبة من الزمان ، ليستطيلوا بكل هذا على العرب ، اذ ليس من المعقول ان تفقر جميع الامصار الاسلامية في وقت واحد من فقهاء العرب الاعلام ، الذين هم بفطرتهم اقدر الناس على فهم القرآن والحديث ، واستنباط الاحكام الشرعية من هذا وذاك»(٦٨)

وكان هذا الباحث على صواب ، اذ ان الخبر الذي رواه صاحب العقد الفريد مكذوب مصنوع ، تتجلى فيه العصبية على العرب ، ويظهر فيه الميل الى انكار ما لهم من مجد علمي ، وتقدم فكري ، والدليل على ان هذا الخبر وضعه شعوبي حاقد هو أن كتب الطبقات والتراجم قد زخرت في ذلك العصر بالاعلام المشاهير من العلماء العرب في حقل العلوم الدينية .

لقد زعم واضع الخبر ان الحجاز يخلو من الفقهاء العرب ، وكذلك العراق والشام واليمن ، ولكن نظرة واحدة الى كتب الطبقات ترينا ان هذه الاقاليم العربية لم تخل في أي عصر من عدد كبير من العلماء العرب ، الذين كانوا ائمة في الفقه وعلوم الشريعة ، تضرب لهم اكباد الابل ، وتنضى الرواحل من اجل لقائهم ، والاخذ عنهم .

ففي الحجاز كان عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن عوف وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ثم جاء بعد هؤلاء الزهري والامام مالك .

وفي العراق كان عبد الله بن مسعود وشريح بن الحارث الكندي وعامر الشعبي

وغيرهم . وفي الشام كان معاذ بن جبل الخزرجي «الذي اقره الرسول الكريم على الاجتهاد برأيه في القضاء اذا لم يجد ما يعينه على ذلك في الكتاب او السنة» ، وعبد الرحمن الاشعري والخليفة العادل عمر بن عبد العزيز والاوزاعي الذي اخذ عنه اغلب علم الشام .

واذا وازنا بين العلماء الاعاجم الذين ذكرتهم القصة التي ساقها العقد الفريد ، وبين العلماء العرب وجدنا بونا شاسعا بين منزلة اولئك الاعاجم ، ومكانة العرب في ميدان العلوم الدينية بل أن الذين ذكرتهم القصة مجاهيل اغمار ، اذا قورنوا بمن ذكرناهم من العلماء العرب . فاين يزيد بن اسلم وسليمان بن يسار ومحمد بن المنكدر من سعيد بن المسيب والزهري والامام مالك ، بل اين مكحول من الاوزاعي الذي ذاع صيته واستفاضت شهرته حتى جاوزت الشام الى الاندلس وشمال افريقيا .

واذا زعمت القصة التي نقلها العقد الفريد ان الامصار العربية في حقبة معينة كانت تخلو من العلماء العرب في حقل الدين والشريعة فان ابن خلدون لم يزعم ذلك وانما ذهب الى أن اكثر حملة العلم كانوا من الفرس في جميع العصور . ولاشك في ان النغمة هي النغمة ، فكلا الرأيين شعوبي نابع من بخس الامة العربية حقها وتقديم غيرها عليها فسواء اغلا الشعوبيون واسرفوا فزعموا ان ليس في الامصار عالم عربي في هذه الحقبة او تلك ، ام تواضعوا واقتصدوا فرأوا ان اكثر حملة العلم من الفرس فان الباعث على الرأيين واحد هو النيل من العرب ، وجحد مالهم من فضل الريادة والاستاذية في كثير من العلوم التي برع فيها الاعاجم . يقول ابن خلدون «من الغريب الواقع ان حملة العلم في الملة الاسلامية اكثرهم من العجم» وسنعود لمناقشة هذا الرأي في مقال قادم .

التعصب على العرب ايضا

ذكرنا في مقال سابق ان الاعاجم اذ فقدوا سلطانهم السياسي وهزموا لغويا امام لغة العرب وحضارتهم اتجهوا الى تحصيل العلوم ، فكان منهم العلماء واللغويون واهل الفقه واصحاب الكلام .

وقد أشرنا ايضا الى أن الشعوبيين استغلوا ظاهرة كثرة العلماء الاعاجم في الاقطار

العربية ، فمضوا يرجفون . بخلو الساحة العلمية في بعض العصور ، وفي بعض الحواضر من العلماء العرب ، وامتلائها بالعلماء الاجانب .

كما أشرنا الى ان بعض الشعوبيين او الحاطبين بحبلهم ذهبوا الى أن أكثر حملة العلم كانوا من الفرس ، وكان ابن خلدون صاحب هذا الرأي . وسنحاول هنا تجلية هذا الرأي ومناقشته .

يقول ابن خلدون : «من الغريب الواقع ان حملة العلم في الملة الاسلامية اكثرهم من العجم . وان كان منهم العربي في نسبته فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته . على ان الملة عربية ، وصاحب شريعتها عربي . والسبب في ذلك ان الملة في[69] اولها لم يكن علم فيها ولاصناعة لمقتضى احوال السذاجة والبداوة» ثم يوضح ابن خلدون ان الحاجة الى العلوم نشأت بعد الاسلام فيقول : «ثم صارت هذه العلوم ملكات محتاجة الى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع ، وقد قدمت ان الصنائع من منتحل الحضر ، وأن العرب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب وعن سوقها . والحضر لذلك العهد هم العجم ، اومن في معناهم من الموالي ، واهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة واحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك ، للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس ، فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعد والزجاج من بعدهما . وكلهم عجم في انسابهم ، وانما ربوا في اللسان العربي ، فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم ، وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه عن اهل الاسلام اكثرهم عجم ، او مستعجمون باللغة والمربى ، وكان علماء اصول الفقه كلهم عجما كما يعرف وكذلك حملة علم الكلام وكذا اكثر المفسرين»[70]

وعلى الرغم من ان ابن خلدون عربي ، فانه يتبنى في رأيه هذا فكرة الشعوبيين بل يبدو فيه اشد عصبية على العرب من الشعوبيين انفسهم .

فابن خلدون يصف العرب قبل الاسلام بالبداوة وبأنهم لم يضربوا بسهم قليل او كثير في العلوم كما انه يذهب الى ان العلوم التي نشأت بعد الاسلام كان موطنها الحواضر وأن تلك الحواضر انما تقدمت في مضمار العلم ، ونشطت فيها حركة التأليف ، لان الاعاجم كانوا يغلبون عليها .

ثم بنى ابن خلدون على هذه المقدمة نتيجة مفادها ان اكثر العلماء من الاعاجم بما

فيهم علماء اللغة والفقة والكلام .

والحق ان ابن خلدون لم ينصف العرب في هذه الاراء فالعرب قبل الاسلام لم يكونوا جميعا كما وصفهم ابن خلدون بداة يفتقرون الى الحضارة ذلك لان في الجزيرة العربية كثير من الحواضر التي عرفت منذ اقدم العصور كثيرا من اوجه الحضارة وفنون المدنية وحتى الذين كانوا يحيون حياة البداوة من سكان سرة الجزيرة كانوا اهل علم وحكمة تدلنا على ذلك هذه الثروة الادبية الحافلة بأدق الفكر والمع الخواطر الانسانية .

ثم ان العرب ليسوا سكان الجزيرة العربية حسب ، وانما هم سكان المنطقة العربية جميعها كالعراق والشام ومصر ، وهذه الاقطار عرفت ارقى الحضارات في العالم القديم وكانت مصدر اشعاع علمي وفكري غمر اوربا وفارس ، وهيأ لأوربا خاصة ان تبني مابنته من علم وحضارة .

ولاندري كيف ساغ لابن خلدون ان يصف العرب قبل الاسلام بالبداوة وقد كانوا الامة التي اختارها الله لحمل رسالة الاسلام والدفاع عنها ووصفها سبحانه بانها خير امة اخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ووصفها ابن خلدون نفسه بانها امة تعمر ولاتخرب وتصلح ولاتفسد وتفيض حيث ذهبت ظلال المدنية والحضارة وتنشر افياء العدل والرحمة .

لقد كان ينبغي لابن خلدون وهو العالم الاجتماعي ان ينظر الى التقدم العلمي الذي احرزه العرب بعد قرنين من بزوغ الاسلام ويجد له تفسيرا ولو فعل ذلك لوجد ان تفسيره يكمن في طبيعة الامة العربية واصالتها وامتداد اسهامها الحضاري في اعماق الزمن فليس معقولا ان تبلغ هذه الامة مابلغته في هذا المدى القصير من الزمن وتطفر بالعلوم التي زاولتها تلك الطفرة التي مازالت موضع اعجاب العلماء المحدثين دون ان تكون مراحل حياتها السابقة قد هيأت لها ان تصل الى ماوصلت اليه او بمعنى ادق دون ان يكون لها تاريخ علمي اعانها على تحقيق ماحققته من نهضة علمية حفظها لنا التراث العلمي الضخم الذي وصل الينا من تلك الحقبة .

ولم يكن ابن خلدون على حق حين ذكر من اعلام النحو سيبويه واغفل العبقري العربي الخليل بن احمد الفراهيدي الذي أرسى قواعد علم النحو وخرج به من ملاحظات عابرة واراء متناثرة الى علم متكامل لم يكن لسيبويه فيه الافضل تدوينه وايداعه بين دفتي كتاب .

لقد اغفل ابن خلدون العلماء العرب الذين برزوا في علوم العربية ، واقتصر على ذكر العلماء المنحدرين من اصول فارسية كسيبويه وابي علي الفارسي ، وفاته ان هذين وغيرهما لم يبلغوا ما بلغوه من تبحر في العربية ، لو لم يتخرجوا باساتذة عرب ، افهموهم اسرار اللغة ، ووقفوهم على دقائقها ، ونهجوا لهم سبل تحصيلها . فكتب التراجم تحدثنا ان سيبويه كان اول عهده يجهل مبادئ اللغة ، وأنه لحن في قراءة حديث نبوي ، وعندما أنكر عليه اللحن تدب نفسه لتعلم النحو ، فلزم الخليل بن احمد ، وغيره من العلماء العرب ، حتى تخرج بهم ، وبرع على ايديهم . وقل مثل ذلك عن الكسائي والفارسي وغيرهما . وقل مثله ايضا عن اولئك الذين اشتهروا في علوم الدين والفلسفة وعلم الكلام ، فقد كانوا تلامذة للعرب ، على ايديهم تثقفوا ، وبهم تخرجوا .

وقد كان طلاب العلم من العرب يعرفون ذلك ، ويدركون ان علم الاعاجم مأخوذ عن العرب فكانوا لايقصدون اعجمياً اذا تهيأ لهم ان يأخذوا العلم عن عربي ، بل ان كثيرا من العرب كانوا يتورعون عن الاخذ عن الاعاجم خوف التورط في الخطأ ، او الوقوع في حبائل الدس والتشويه . ولعل خير دليل على ذلك ما اجاب به الزهري حين قيل له «زعموا انك لا تحدث عن الموالي» فقال «اني لأحدث عنهم ، ولكن اذا وجدت ابناء المهاجرين والانصار اتكىء عليهم ، فما اصنع بغيرهم؟»[٧١]

دور البرامكة في الحركة الشعوبية

لقد ادرك الخلفاء في العصر الاموي مايضمره الشعوبيون من كره للعرب ، وما يطوونه من حقد دفين على دينهم ، ورغبة عارمة في الاطاحة بحكمهم ، واعادة الملك الكسروي الذي بددته شمس الاسلام ، ادرك الخلفاء الأمويون كل ذلك ، فكموا افواه الشعوبين ، وشلوا نشاطهم .

وعندما ظهرت الدعوة العباسية ، لاحت للشعوبين بارقة امل ، فانضموا الى تلك الدعوة ، وعملوا مع اصحابها على اسقاط الأموين ، وقلب نظامهم الجاثم على صدورهم ، والمانع اياهم من المكر بالعرب ، والكيد لهم .

لقد قبل العباسيون نصرة الفرس ، وظنوا انهم حلفاء مخلصون ، والحقيقة ان اكثرهم كان مدفوعا الى تلك النصرة بباعث شعوبي . ثم سارت الحركة في طريقها ، وما هي إلا أعوام حتى خفقت بنود بني العباس على معاقل الامويين ، ودالت دولتهم ، وآلت الخلافة للعباسيين .

ولم يجحد العباسيون دور الفرس في مساعدتهم ، بل عرفوا لهم ذلك ، وأكرموهم من أجله ، وحققوا لهم ما لم يكن يجدونه في العصر الأموي من مشاركة في الحكم ، وشغل للمناصب ، وبروز في مناحي الحياة .

وازاء اتساع نفوذ الفرس لم يجد الزعماء العرب بدا من تنبيه الخلفاء العباسيين الاوائل على ذلك ، فقد قال عبد الصمد بن علي للمهدي : «ياامير المؤمنين انا اهل بيت قد اشربت قلوبنا حب موالينا وتقديمهم ، وانك صنعت من ذلك ما افرطت فيه ، فقد وليتهم امورك كلها ، وخصصتهم في ليلك ونهارك ، ولا امن تغيير جندك وقوادك من اهل خراسان»(٧١) .

لم يكن الخلفاء العباسيون اذن يشكون بادئ ذي بدء باخلاص الفرس ، فاعتمدوا عليهم ، وقلدوهم اعمال الدولة ، ولكن هدف الزعماء الفرس لم يكن المشاركة في الحكم ، او الوصول إلى مناصب الدولة ، بل كانوا يريدونها كسروية

خالصة ، تعني على العرب ، وتنتقم منهم شر انتقام .

وقد قام الفرس بعدة محاولات لتحقيق هذا الهدف ، فباءت محاولاتهم بالفشل . ولقي اصحابها حتوفهم ، فمحاولة أبي سلمة الخلال كانت زمن أبي العباس السفاح . فأخفقت وانتهت بمقتل الخلال . ومحاولة ابي مسلم الخراساني ظهرت ايام ابي جعفر المنصور ، وكان مصير صاحبها القتل ايضا .

واما محاولة البرامكة فقد كانت اكثر المحاولات خطرا ، وأبعدها اثرا في الحياة الاجتماعية والعلمية والادبية .

لقد كانت البرامكة اسرة فارسية شديدة الصلة بالبيت العباسي ، وحين وجدت هذه الاسرة ان الخليفة الهادي يتميز بالحزم ، وبعدم الميل الى الفرس ، سعت الى التخلص منه ، ودبرت له مؤامرة انتهت بموته خنقا ثم جاء الرشيد الذي نقل الحكم الى البرامكة ، فاستبدوا بالملك ، وشغلوا مراتب الدولة باولادهم وأعوانهم وصنائعهم ، واحتجنوا الاموال ، وكبحوا العرب ، فلم يسمحوا لهم بشيء من سلطة او نفوذ ، بل كانوا يمنعونهم احيانا من الاتصال بالخليفة ، او حضور مجلسه .

واذا علمنا ان البرامكة كانوا على دين ماني ، اي يظهرون الاسلام ، ويكنون الكيد له ، ادركنا ما كانوا يرمون اليه من اطاحة بالحكم العربي ، وطمس لمعالم الدين الاسلامي .

لقد تمكن البرامكة من السيطرة على شؤون الدولة والتحكم في احوالها ، ولكنهم لم يكتفوا بهذا القدر الواسع من النفوذ ، فراحوا يفسدون الحياة الاجتماعية ، ويشوهون التاريخ العربي ، ويضعون الشعر ، ويترجمون عن الفارسية الكتب التي تنطوي على عقائدهم ، ودياناتهم القديمة .

وقد كان للبرامكة في هذا المجال خطة محكمة ، اعانهم على تنفيذها جماعة من الادباء والرواة والعلماء والمترجمين والشعراء . وكان من ابرز هؤلاء أبو عبيدة وعلان الشعوبي في رواية التاريخ ووضع الاخبار ، وابان بن عبد الحميد اللاحقي والفضل ابن سهل في الترجمة عن الفارسية ، وسهل بن هارون وسعيد بن البختكان من الناقمين على العرب ، والواضعين الكتب عليهم [٧٢] . ومن شعراء البرامكة الذين كانوا يمدحونهم ، ويذودون عنهم الفضل الرقاشي، فأبو عبيدة [٧٣] وهو فارسي الاصل ، أبوه على دين اليهود ، وجده مجوسيّ ، برع في اللغة والأدب ، فقدمه الى الرشيد –

وربما بإيحاء من البرامكة – اسحاق الموصلي ، وهو مولى مثلهُ ، زعم للرشيد أنه ثقة صدوق ، فقربه الخليفة ، وأحله من بلاطه أرفع محل[٧٤] .

لقد كان هذا الأديب شعوبيا ، متعصبا للفرس ، حتى انه كان ينشد :

فلو رد في كسرى بن ساسان روحه اذن لاصطفاني دون كل نديم

لقد أوغل أبو عبيدة في الدس على العرب ، وفي الحط من شأنهم ، بما ألف من كتب ، ووضع من روايات وأخبار .

يقول جولدِ زهْر : «ان ابا عبيدة مولع بوضع الأخبار ، ووضع الاحاديث التي تظهر خلاف القبائل العربية فيا بينها وتهاجيها وتشاتمها بقبيح الكلام ومقذع الهجاء»[٧٥] .

فعن ابي عبيدة هذا شاعت الاخبار التي تحكي ماكان بين القبائل العربية قبل الاسلام من تناحر وخلاف . وما كان يسود المجتمع العربي في ذلك العهد من فرقة وانقسام .

فقد نقل عنه المؤرخون القدامى كالطبري مثلا ، وصارت رواياته التي وضعها غله وحقده اساسا بني عليه حكم جائر على الحياة العربية في تلك المرحلة المتقدمة من تاريخ الأمة ، اذ مازلنا ننعتها بأنها مرحلة فرقة وتناحر .

يقول المسعودي «ان لابي عبيدة مصنفاتٍ في أيام العرب وغيرها ، منها كتاب المثالب يذكر فيه انساب العرب وفسادها ، ويرميهم بما ليس من السياسة ذكره ، ولا يحسن وصفه»[٧٦] .

ويقول جولد زهر «وهكذا يريد ابو عبيدة ان يقطف كل درة في تاج الفخر العربي»[٧٧] .

ويقول باحث معاصر «فكان أبو عبيدة اذا رأى شأنا يشرف العرب أرجعه الى الفرس ، فاذا رأى قصيدة فائقة او حكاية ممتعة قال ان العرب قلدوا الفرس بها ، وقد بالغ في ذلك حتى جعل كثيرا من الاخلاق العربية راجعة الى الفرس ، وجعل الفضل[٧٨] في تقدم الادب العربي راجعا الى الموالى لما ترجموه من أداب ابائهم» .

لقد كان ابو عبيدة هذا شديد الوطأة على العرب ، مما حدا بعض الادباء العرب على التصدي له ، ودفع افتراءاته ، وكان الاصمعي وابن دريد والجاحظ في مقدمة أولئك الأدباء .

من شعراء البرامكة الشعوبيين

ذكرنا في مقال سابق ان البرامكة قوم من الفرس ، كانت بهم عنصرية ، جنحت بهم الى التعصب لثقافة الاعاجم وأدابهم ، فحشدوا القوى لنشرها ، والترجمة عنها . وندبوا لذلك بعض الادباء ، وخاصة الشعوبيين منهم ، الذين جمعهم بالبرامكة كره العرب ، والرغبة في ثلبهم ، والتقول عليهم .

لقد استمال البرامكة عددا من الشعراء والكتاب ، واعطوا لكل واحد من هؤلاء دوراً بعينه واسندوا اليه مهمة معينة . وكان البرامكة يغدقون على اولئك الادباء سني الجوائز ، ويصلونهم باعظم الصلات ، ويملأون بهم مناصب الدولة .

يقول باحث معاصر : «شغل البرامكة مراتب الدولة بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة . يقال انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى خمسة وعشرون رئيسا بين صاحب قلم وصاحب سيف ، وكبحوا العرب عن التطاول للولايات ، فصارت الوزارة للعجم ، والصنائع من البرامكة وبني سهل وبني نوبخت وبني طاهر»(٧٩) .

ولم يتورع البرامكة عن تشجيع الآراء المجانبة للدين ، والمتسمة بالزندقة يقول الاستاذ احمد امين : «وقد عرف عن البرامكة ايواؤهم لكثير ممن عرفوا بحرية الرأي ، او اتهموا بالزندقة ، فكانت البرامكة تحسن الى محمد بن الليث الخطيب احد موالي بني امية وكان ممن يرمى بالزندقة»(٨٠) .

لقد كان للبرامكة اهداف سياسية ودينية حملتهم على ان يشتروا أقلام بعض الادباء ، فلم يأل هؤلاء جهدا في خدمة مخطط البرامكة الذي كان يرمي الى الادالة من العرب ، ويتوخى تقويض اركان الاسلام ، ويروم تعطيل دور العرب الحضاري والفكري .

ومن هؤلاء الادباء الذين ضلعوا في ركاب البرامكة ، وانضووا تحت لوائهم علان او غيلان بن الحسن الوراق المعروف بالشعوبي ، لشدة عصبيته على العرب ، وبغضه لهم كل البغض ، وتفضيل قومه الفرس عليهم(٨١) .

اتصل هذا الشاعر بالبرامكة ، ففسحوا له المجال ، وألحقوه ببيت الحكمة ، فأخذ ينسخ للرشيد ثم للمأمون(٨٢) .

لقد كان هذا الشاعر الشعوبي شرس الاخلاق ، نابي الالفاظ ، معروفا بحدة خصومته للعرب ، وشدة وطأته عليهم . فقد وضع عدة كتب تنال من العرب ، وتنسب اليهم المطاعن والمثالب . ومن اشهر هذه الكتب كتاب «الميدان في المثالب» الذي يقول عنه ياقوت : هتك فيه العرب ، واظهر مثاليها ، وتناول القبائل العربية قبيلة قبيلة مبتدئا ببني هاشم وقد تقرب به الى طاهر بن الحسين وزير المأمون ، فاجازه عليه بثلاثين الف درهم[٨٣] .

ولما كان علان هذا زنديقا فانه لم يتورع في كتابة عن الخروج على تعاليم الاسلام ، ولم يحجم عن افراغ مافي جعبته من طعن وهجاء على بني هاشم ، رهط النبي ، وعشيرته الادنين .

يقول الآلوسي في كتابة بلوغ الأرب «ثم نشأ علان الشعوبي وكان زنديقا ثنويا فعمل لطاهر بن الحسين كتابا خارجا عن الاسلام بدا فيه بمثالب بني هاشم ثم بطون قريش ثم سائر العرب ونسب اليهم كل زور ، ووضع عليهم كل افك وبهتان»[٨٤] .

ومن كذبه وافترائه على الحق في هذا الكتاب ما نسبه الى آل منقر من عيوب ، وما طعن به على زعيمهم قيس بن عاصم المنقري الذي اكرمه النبي صلى الله عليه وسلم ولقبه بسيد أهل العرب ، والذي رثاه عبدة بن الطيب بقوله :

عـليكَ سلامُ الله قيسَ بن عَاصمٍ — ورحـمـتـهُ مـاشاء ان يترحما
ما كان قيسٌ هُلكُه هُلكُ واحدٍ — ولكنه بنيان قوم تهدما

ولا شك في ان بني منقر كانوا مثل سيدهم هذا شرفا وكرم فعال وآية ذلك ما ذكره عنهم سيدهم قيسُ بنُ عاصم معتزاً بهم ، ومفتخرا بنفسه :

اني امرؤ لايعتري خلقي . دنس يفنده ولا أفن
من منقرٍ في بيت مكرمةٍ والغصنُ ينبتُ حوله الغصنُ
خطباءُ حين يقوم قائلهم بيضُ الوجوه مصاقع لسن
لايفطنون لعيب جارهمُ وهم لحفظ جوارهم فُطُن[٨٥]

وهكذا يزوّر هذا الشعوبي التاريخ ، ويتجرأ على ذم أسرة عربية مدحها النبي ، واكرم سيدها . ولكن كتابه العفن هذا لم يجد غير مزبلة التاريخ .

وعندما رد الشاعر العربي محمد بن يزيد بن مسلمة الأموي على طاهر بن الحسين

الذي فخر بقومه الفرس ، وفضلهم على العرب ، تكفل علان بالرد على الشاعر العربي نيابة عن طاهر بن الحسين.قال محمد بن يزيد يفخر بالعرب ويرد على طاهر بن الحسين :

لا يرعك القال والقيل كل مابلغت تهويل
ياابن بنت النار موقدها ما لحاذيه سراويل
أي مجد لك ترفعه أو نُسَيب لك بهلول
من حسين ؟ وابوك ؟ ومن مصعب ؟ غالتهم غول
وزريق اذ تخلفه نسب عمرك مجهول
تلك دعوى لاتنافسها وأبوات مراذيل
ماجرى في عود اثلتكم ماء مجد فهو مدخول

فقال علان يرد على الشاعر العربي ، ويفخر بالفرس ويشيد بطاهر بن الحسين الفارسي :

قد تجاللت على دخل واستخفتك التهاويل
وأبو العباس غادية لعزاليه الاهاليل
تمطر العقيان راحته وله بالجود تهطيل
رستمي في ذرا شرف زانه تاج واكليل
كسرويات ابوتنا غرر زهر مقاويل(٨٦) .

لقد كان علان الشعوبي واحداً من الادباء الفرس المأجورين الذين سخرهم البرامكة للنيل من العرب ، مدفوعين الى ذلك بحقدهم الدفين على هذه الأمة التي لم يكن لها من ذنب إلا أنها أهدتهم الاسلام ، وحررتهم من العبودية .

الشعوبية في الأندلس والمغرب

يذهب الباحثون الى أن الحركة الشعوبية كانت في مشرق الدولة العربية الاسلامية اشد منها في مغربها ، وانها كانت على السنة الفرس وفي اثارهم اعلى صوتاً . واشد ظهوراً منها على السنة الاجانب الاخرين وفي اثارهم[٨٧]

والباحثون اذ يقرون ذلك يلتمسون له عدة اسباب سنحاول هنا ان نعرض لها بشيء من ايجاز .

فالفرس كانوا اكثر الامم ميلا الى الشعوبية ، كما كانوا اشد عداوة للعرب من غيرهم . وسبب ذلك انهم كانوا يستشعرون النقص امام الامة العربية ويحسون انهم مغلوبون مقهورون ، وينظرون الى الأمة العربية لا على انها امة حررتهم من ظلم وأنقذتهم من ضلال ، وانما يرونها امة فاتحة متسلطة ابادت سلطانهم ، وثلت عرشهم .

ولذلك تمكنت من نفوسهم عقدة النقص ، وراحوا يلتمسون الفرص للإنتقام من الامة العربية ، ويبذلون اقصى الوسع في عرقلة استقرارها ، والحيلولة دون أداء رسالتها الانسانية على صعيدي الدين والحضارة .

اما سكان الاقاليم المحررة في مغرب الدولة العربية الاسلامية وخاصة الاندلس ، فلم يستشعروا ذلك ، بل كانوا يقرون بفضل العرب عليهم . ويعترفون بأنهم نقلوهم من عهد مظلم ، تسلط على رقابهم فيه القوط وهم قوم جهلة غلاظ الى عهد تنسموا فيه عبير الحرية ، وذاقوا نعمة العدل والمساواة .

كما ان سكان الاندلس كانوا قوما لاحضاره لهم ولا فكر ، وحين حررهم العرب نقلوا اليهم حضارة راقية فأقبلوا على تعلم العربية واتقانها وهجروا لغاتهم القديمة لفقرها ، وضيق مفرداتها حتى ضج بعض اهل البلاد من ذلك وخافوا انقراض لغاتهم الاصلية .

وعلى ذلك فان الاندلسيين الاصليين خاصة والعناصر غير العربية في المغرب عامة لم يشغبوا على العرب ، ولم يقاوموهم ، ولم يستطيلوا عليهم ، وانما سكنوا الى حكمهم ، وتفيأوا ظلال دولتهم .

لم يفقد اهل الاندلس الاصليون ملكاً كانوا يحرصون عليه ، ولم يعدموا حضارة

كانوا يفخرون بها ، ولذا لم ترتفع في تلك البقاع اصوات العداء للعرب ولم تظهر حركة شعوبية على نحو ما ظهرت في المشرق .

وكان العرب في المشرق وفي العصر العباسي قد اعتمدوا على الفرس وبوأوهم مناصب الدولة ، فاستغل الفرس تسامح العرب ورحابة انسانيتهم ، فذهبوا يدبرون للادالة منهم ، والانقضاض على دولتهم كما راحوا يصنفون الكتب في ذمهم والنيل منهم .

أما العرب في الاندلس فلم يفعلوا ذلك ، ولم يعتمدوا على العناصر الاجنبية ، ولم يجعلوا لهذه العناصر النفوذ الواسع الذي كان لهم في المشرق

ولكن عندما ضعف نفوذ العرب في الاندلس في الايام الاخيرة ، برزت حركة شعوبية مناوئة للعرب وظهر ابن غرسيه الذي الف في النيل من العرب وفي تفضيل العجم عليهم ، فتصدى له علماء الاندلس وردوا عليه .

في نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون نص رسالة ابن غرسيه ورسائل العلماء في الرد عليه .

وهناك سبب اخر ادى الى استفحال الحركة الشعوبية في المشرق وخفوت صوتها في الاندلس والمغرب وهو ان عرب الاندلس والمغرب كانوا اكثر محافظة من عرب المشرق ، بمعنى ان حرية الفكر كانت قوية زمن العباسيين وخاصة في عهود بعض الخلفاء الذين شجعوا النظر ورحبوا بالجدل والفلسفة فأدى ذلك الى ان يستغل اعداء الاسلام ، والحاقدون على العرب هذه الحرية فيمسوا العقيدة من جانب ويجهروا بما كان يعتلج في صدورهم من بغض للعرب من جانب اخر .

ومهما يكن من امر فان الشعوبية حركة سياسية هدامة ظهرت على نحو واسع وقوي في مشرق الوطن العربي ، في حين لم تبرز في المغرب والاندلس الا في عهود متأخرة ، وعلى نحو ضعيف وفاتر ، وقد بينا فيما تقدم الاسباب الكامنة وراء ذلك .

حماد الراوية

ومن الادباء الشعوبيين الذي كان لهم دور بارز في تزييف الادب العربي وافساد حقائقه حماد بن سابور الملقب بالراوية ، لاتساعه في الرواية وكثرة ما نقل عنه من شعر واخبار ولغة .

لقد عرف عن حماد اذن انه مكثر من الرواية ، حتى قيل ان الوليد بن يزيد سأله عن سر تلقبه بالراوية فقال : لاني اروي لكل شاعر تعرفه يا امير المؤمنين ثم اروي لاكثر منهم ممن لا تعرفهم ، ولا سمعت بهم ، ثم لا تنشدني شعرا لقديم او لمحدث الا ميزت القديم من المحدث ، فقال الوليد : ان هذا وابيك لكثير فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ، فقال حماد : ولكني انشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة سوى المقطعات من شعر الجاهلية .[88]

وتتحدث كتب التراجم عن مدى العبث الذي لحق بالشعر العربي على يدي حماد هذا . يقول ابن سلام : ان حمادا دخل على بلال بن ابي برده بن ابي موسى الاشعري فقال له : ما اطرفتني شيئا ، فانشده قصيدة للحطيئة في مدح جده ابي موسى الاشعري ، فقال بلال : ويحك ايمدح الحطيئة ابا موسى ولا اعلم وانا اروي شعر الحطيئة ، ولكن دعها تذهب في الناس وقد تركها حماد فذهبت فعلا في الناس واستقرت في ديوان الحطيئة[89]

لقد اساء حماد الراوية الى الموروث الشعري وعبث به عبثا كبيرا دفع اليه حقده على العرب ورغبته في النكاية بهم .

قال المفضل الضبي : «سلط على الشعر من حماد ما افسده فلا يصلح ابدا فقيل : وكيف ذاك ؟ أيخطئ في روايته ؟ ام يلحن ؟ قال : ليته كان ذلك فان اهل العلم يردون من يخطئ الى الصواب ولكنه رجل عالم بلغات العرب واشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلايزال يقول الشعر يشبه به مذهب الرجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الافاق فتختلط اشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد واين ذلك ؟[90]

وقال الاصمعي : «كان حماد اعلم الناس اذا نصح ، يعني اذا لم يزد او ينقص في الاشعار والاخبار فانه كان متهما بانه يقول الشعر وينحله شعراء العرب»[91]

لقد قام حماد بدوره الذي ناطته به الشعوبية الفارسية خير قيام وكان دوره افسا

الموروث الشعري ، والعبث به ، وقد أعان حمادا على اداء مهمته هذه ما كان يتمتع به من موهبة فريدة تجلت في قدرته على تقليد الشعراء ومحاكاة اساليبهم وذلك لكثرة ما قرأ لهم وطول مزاولته اشعارهم .

وقد عجب بعض الباحثين من فعل حماد هذا وتساءل عن السبب الذي حداه على نسبة ما كان ينظم من شعر الى الاخرين وكان الاولى به ان ينسبه الى نفسه ليشتهر به شاعرا لا راوية .

والجواب عن هذا ان حمادا كان احد المنفذين لخطة فارسية توخت التراث العربي وقصدت طمس خصائصه ، وتشويه معالمه ، ولذا لم يكن يعنيه ان يكشف عن موهبته الشعرية ، وانما كان يهمه ان يستعمل هذه الموهبة في العبث بالشعر العربي ، ذلك العبث الذي تمثل في نسبة الشعر الى غير قائله او في اختلاق الشعر ونحله ، ولاشك في أن هذا الضرب من العبث كان شديد الخطر على التراث اذ لو بقي دون كشف لاصبح التراث بسببه محفوفا بالشكوك مثقلا بالريبة ، لا يستطيع الدارس ان يطمئن اليه ويستنبط منه ما يسعف به من احكام .

وقد استشعر اللغويون العرب خطورة ما قام به حماد وغيره من عبث بالشعر العربي ، فشمروا عن ساعد الجد ، وراحوا ينقون الشعر ، ويوثقون مادته ، وكان ابن سلام الجمحي في مقدمة اولئك اللغويين الذين فطنوا لتزييف حماد اوغيره للشعر واجتهدوا في تخليصه من الدس والانتحال .

وعلى الرغم من محاولات اللغويين العرب المخلصة في تبرئة الموروث الشعري من اثار العبث الفارسي ، فان المستشرقين ومشايعيهم من العرب المخدوعين بهم في عصرنا الحديث ، استغلوا عبث حماد وامثاله بالشعر العربي فراحوا يشككون بموروث العرب الشعري عامة وبالشعر العربي قبل الاسلام خاصة وانطلقت دعوى عريضة مفادها ان شعر ذلك العصر منحول لا يصح منه الا النزر اليسير . وراجت هذه الدعوى ، واخترعت لها الادلة مما جعل الغُيُر على ثقافة الأمة ينبرون لتسفيه هذه الدعوى ونقض ادلتها .

لقد تعامى المستشرقون عن ان علماءنا الاقدمين قد اجتهدوا في تخليص الشعر العربي من العبث وبالغوا كثيرا في تدقيق مادته والتثبت من صحة نسبته ، كما تغافل المستشرقون عن اقوال صريحة تشهد بأن العلماء العرب استقبلوا ما رواه حماد وغيره في

كثير من الحذر والريبة ولم يقبلوا منه الا ما صح لديهم عن طريق غيره من الرواة الثقات. فابن سلام كان يقول عن حماد : (كان حماد غير موثوق به وكان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الاشعار»[٩٢]

وكان الاصمعي يقول : «جالست حمادا فلم اجد عنده ثلاث مئة حرف ولم ارض روايته»[٩٣]

ولاشك في ان هذه الاقوال وامثالها تدل على مبلغ ما بذله النقاد العرب من جهد في توثيق التراث وتنقيته مما لحقه من عبث ودس.

واذا كان الامر كذلك فلا معنى لشك المستشرقين في الشعر العربي قبل الاسلام ولا تفسير لهذا الشك الا أنه نابع من حقدهم على الامة الذي هو امتداد لحقد الشعوبية القديم.

الهيثم بن عدي

من الادباء الشعوبين الذين ناصبوا العرب العداء وامعنوا في ثلبهم، والتشهير بهم. ابو عبد الرحمن الهيثم بن عدي المتوفى سنة تسع ومئتين للهجرة.

لقد اجمع المؤرخون على أن أمه فارسية، ولكنهم اختلفوا في نسبه، فبعضهم يقولون انه عربي طائي، وبعضهم يذهبون الى انه اعجمي، ويطعنون في انتسابه الى طيء يقول ابو نواس[٩٤] :

الحمد لله هذا اعجب العجب ... الهيثم بن عدي صار في العرب
يا هيثم بن عدي لست للعرب ... ولست من طيء الا على شغب
لهيثم بن عدي في تلونه ... في كل يوم له رحل على خشب
فما يزال اخا حل ومرتحل ... الى الموالي واحيانا الى العرب

ويقول باحث معاصر: «وسواء اكان الهيثم عربيا حقا، ام دعيا من ادعيائهم، فالذي لاشك فيه انه كان يكره العرب، وكثيرا ما كان يشهر بهم وبعاداتهم وتقاليدهم، في مأكلهم ومشربهم، وله في ذلك كتب كثيرة، اشار اليها الرواة، مما يجعلنا نشك حقا في نسبته العربية»[٩٥]

وهذا الباحث على حق، فليس معقولا ان يكون الهيثم عربيا، ثم يضمر للعرب كل هذا الكره، ويذهب في معاداتهم، والتعصب عليهم كل مذهب. وقد يكون

الهيثم بن عدي عربيا حقا ، ولكنه عربي الجنسية ، كما نقول اليوم ، وليس عربيا في انتمائه وشعوره ، اذ ليس الانتساب الى الأمة يقف عند انتحال نسبها ولسانها ، وانما يتجاوز ذلك الى حبها والايمان بها ، والدفاع عن مثلها وقيمها وما يقع ضمن تخومها من تراث وتراب ؛ واذا كان الهيثم هذا عربياً ، فانه عربي على طريقة ادعياء العروبة في عصرنا الحديث ، ممن يحملون الجنسية العربية ، ويلوكون الالفاظ العربية ، ولكن قلوبهم فارغة من حب هذه الأمة ، بل لعلها مملوءة كرها لها ، وولاء عميقا لاعداء حضارتها ، ومغتصبي ارضها .

لقد كان الهيثم بن عدي شعوبيا في فكره وسلوكه ، وقد اخذ بحظه من الاسهام في الحملة الشعوبية على الامة العربية في العصر العباسي ، تلك الحملة التي تنوعت مظاهرها ، وتشعبت سبلها ، الا أن هدفها كان واحدا هو تقويض المجتمع العربي ، وطمس اصالته وتعطيل دوره الحضاري والفكري ، ثم القضاء على الدولة العربية الاسلامية ، والتحول بها الى دولة كسروية خالصة .

واذا علمنا ان ابن خلكان وصف الهيثم بن عدي بانه كان اخباريا نقل الكثير من كلام العرب وعلومها واشعارها ولغاتها ، ادركنا مبلغ ما اقحمه هذا الشعوبي الحاقد من كذب وزيف في تاريخنا اللغوي والادبي ، وادركنا ايضا ما ابتليت به هذه الأمة من عداء ضار ، وكيد صارم ، ولكن هذا العداء وذلك الكيد لم يستطيعا ان يبلغا منها شيئا ، وانما كان مثلهما كمثل النار التي تجلي المعدن ، وتكشف عن اصالته ، وتزيده بريقا ونضارة .

لقد وضع الهيثم بن عدي عددا من الاخبار الكاذبة التي تنال من العرب ، وتسيئ الى ذوي المكانة منهم . من ذلك ما رواه كذبا وافتراء عن امرأة من بني عامر ، زعم ان رجلا غريبا نزل بها ، فطلبت اليه ان يذكر نسبه فكان كلما ذكر لها قبيلة من العرب ، روت له شعرا ، يشهّر بتلك القبيلة ، وينسب اليها بعض الرذائل . ومازال يذكر لها قبائل العرب قبيلة قبيلة حتى انتسب الى بني هاشم فقالت هذين البيتين :

بني هاشم عودوا لنخلاتكم فقد صار هذا التمر صاعا بدرهم
فان قلتموا رهط النبي محمد فان النصارى رهط عيسى بن مريم (٩٦)

فالهيثم بن عدي واضع هذا الخبر لا يقف عند حد التطاول على بني هاشم رهط النبي (ص) بل يتجاوز ذلك الى الاشارة الى فكرة شعوبية تكررت على السنة كثير من الشعوبيين ، تلك هي ان العرب امة لا تحسن الملك ولا عهد لها بالحكم او السلطان . وظلم الشعوبية للعرب في هذه الدعوى واضح كل الوضوح فالعرب لم يكونوا قبائل الجزيرة العربية حسب ، بل هم سكان المنطقة العربية كلها ، ولا ينكر احد ان سكان هذه المنطقة كانوا اصحاب حضارة عريقة وشامخة فاقت في كثير من جوانبها حضارات الامم الاخرى ، بما فيها فارس .

بل ان جنوب الجزيرة نفسها كان موطن ملك عظيم ، وموئل حضارة سامقة ، تجلت في البناء والزراعة والسدود وغيرها من وجوه الحياة .

وتذكر كتب التاريخ ان للهيثم بن عدي هذا كتبا كثيرة ملأها بالدس على العرب ، واتخمها بالروايات الكاذبة ، ولكن رواياته هذه وجدت من تصدى لتفنيدها ، واظهار زيفها ، وتعرية مختلقها ، وكان الجاحظ الكاتب العربي الغيور في مقدمة اولئك الادباء[97] . فلولا الجاحظ واضرابه من ابناء امتنا المخلصين لبقيت تلك الاخبار تدنس تاريخنا ، وتشوه حقيقة حضارتنا الناصعة .

ومن الامثلة على كذب الهيثم بن عدي ما وصف به الاحنف بن قيس ، سيد بني تميم ، والمعروف بحلمه ورجاحة خلقه ، لقد وصفه الهيثم بصفات مرذولة ، نال بعضها من خلقه ، ونال بعضها الاخر من خلقه ، ولم يعترف له الا بالفصاحة فقال بعد ان غمزه غمزا مرا «ولكنه اذا تكلم جلى عن نفسه» فقال الجاحظ معلقا على هذا الخبر ، وفاضحا كذب الهيثم : «ولو استطاع الهيثم ان يمنع الاحنف البيان لمنعه»[98]

لقد فطن الجاحظ الى افتراء هذا الشعوبي ، فطعن في روايته ، ولم يشفع للهيثم انه نسب روايته الى رجل عربي هو عبد الملك بن عمير ، لأن الشعوبيين كانوا يتبعون هذا الاسلوب ، اي انهم ينسبون اخبارهم الكاذبة وافتراءاتهم الى رواة عرب ليعموا ما بها من زيف ، ويوهموا الناس بصحتها .

غير ان الجاحظ وامثاله لم تجز عليهم هذه الحيلة الشعوبية البارعة . نخلص من ذلك الى القول بان تاريخنا الادبي والسياسي والعلمي متخم باوضاع الشعوبية ودسها ، وان كثيرا من الاحكام الظالمة مازالت قائمة في اذهان بعض الباحثين ، ومنثورة في مطاوي بعض الدراسات التاريخية والادبية .

لذا اننا مطالبون ، كما دعا السيد الرئيس القائد المناضل صدام حسين باعادة كتابة التاريخ ، وواضح ان هذا العمل لا يتيسر مالم تنق المادة التاريخية من الدس الشعوبي ومالم نجر محاكمة يقظة وذكية لكل الاخبار والروايات لنحررها مما شابها وعلق بها من ظلم وافتراء وعند ذلك سيكون تاريخنا اكثر اشراقا مما هو عليه الأن ، وانصع صفحة ، وعند ذلك سننصف امتنا من اعدائها وليس بكثير على العراق الذي يقاتل اعداء الأمة نيابة عن الامة ان ينهض بهذا العمل العلمي القومي الجليل .

ابن المقفع

لقد كانت النزعة الشعوبية مستقرة في نفوس كثير من الادباء الاعاجم ، مختلطة بدمائهم ، شعراء كانوا ام كتابا .

ومن الادباء الذين جردوا اقلامهم على العرب ودينهم اخلاصا لعقائدهم الشعوبية ، وتعصبا لدولتهم الكسروية ، ابن المقفع .

كان ابن المقفع فارسي الاصل ، مجوسي الدين ، كما كان ملما بالثقافات الاعجمية ، متأدبا بادابها ، مسخرا ملكته البيانية لمهاجمة العرب ، والنيل من الاسلام .

يذكر الذين ترجموا له انه كان مجوسيا ، وانه لم يعلن الاسلام الا في اخريات حياته ، على يد عيسى بن علي عم الخليفة ابي جعفر المنصور .

وقد انفرد الاستاذ كرد علي من بين مؤرخي الادب فزعم ان ابن المقفع كان صادق الايمان ، مخلصا في اسلامه ، في حين اجمع المؤرخون على زندقة ابن المقفع ، واتفقوا على اتهامه في دينه[٩٩]

فالمهدي يقول : «ما وجدت كتاب زندقة الا واصله ابن المقفع»[١٠٠]

وابو الفرج الأصبهاني يشير الى أن الجاحظ قد نظمه في سمط المتهمين في دينهم مع والبة بن الحباب ومطيع بن اياس وحماد عجرد[١٠١] والى مثل ذلك ذهب المسعودي الذي ذكر ان المهدي طارد الملحدين وقتل الذاهبين عن الدين كابن المقفع[١٠٢]

وطه حسين يقول : «وابن المقفع اسلم في ايام العباسيين ولكن اسلامه لم يكن فيما يظهر صحيحا ولاخالصاً لله ، فقد كتب في الزندقة كتبا كثيرة ، اضطرت بعض

المسلمين الى ان يرد عليها في ايام المأمون». [١٠٣]

واحمد امين يقول: «تطلق الزندقة على اتباع دين المجوس وخاصة دين ماني. مع التظاهر بالاسلام كالذي اتهم به الافشين وبشار وابن المقفع». [١٠٤]

والدكتور بديع شريف يرجح انه «كان زنديقاً لايؤمن بالله، ولايقيم وزناً لدين محمد بن عبد الله». [١٠٥]

ومن الدلائل التي تؤيد فساد عقيدة ابن المقفع الدينية، وتشير بوضوح الى تعلقه بالمجوسية، والولاء لها، تمثله بقول الأحوص حين مر بعد اسلامه ببيت من بيوت النار:

يابيت عاتكة الذي اتعزل حذر العدا وبك الفؤاد موكل
اني لأمنحك الصدود وانني قسماً اليك مع الصدود لأميل

وفي هذا دليل لايقبل الشك على كذبه في اسلامه ونزعته الى المجوسية دين ابائه. [١٠٦]

وفي قصة اسلامه نفسها، مايكشف عن انه لم يقبل على الاسلام بنفس مطمئنة وايمان صادق فقد ذكر ان ابن المقفع جاء الى عيسى بن علي وكان كاتبه، وقال له دخل الاسلام في قلبي واريد ان أسلم على يدك. فقال له عيسى: ليكن ذلك غداً بمحضر من القواد ووجوه الناس ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم على عادة المجوس. فقال له عيسى: اتزمزم وانت على عزم الاسلام؟ فقال: اكره ان ابيت ليلة على غير دين. [١٠٧]

واما مذهب ابن المقفع السياسي، فقد كان يتظاهر بالولاء لبني العباس، ولكنه كان شعوبي الرأي في الحقيقة يعمل في صمت ويسعى في الخفاء. وقد تجلت شعوبيته بمظاهر عدة: منها انه حاول نشر العادات والتقاليد الفارسية في الحياة والاجتماع والسياسة، وذلك عن طريق ماترجم الى العربية من كتب تنطوي على تلك العادات والتقاليد.

ومن مظاهر شعوبيته استخفافه بالدين الاسلامي وتجرؤه على معارضة القرآن الكريم فقد ذكر القاسم بن ابراهيم في كتابه «الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع» الذي نشره المستشرق الايطالي جويدي، ان ابن المقفع عارض القرآن الكريم كما فعل مسيلمة من قبل، وقد اورد نماذج من هذه المعارضة. [١٠٨]

ومن دلائل شعوبيته تعصبه على العرب ، وتجريده اياهم من كل فضل او مزية . يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة : «والعرب في رأيه قوم لايستحقون هذا السلطان ، وليسوا اهلاً كالفرس لهذه العظمة والمجد . كان شديد السخرية من العرب والتنقص لهم ، وهو لذلك يعد راساً من رؤوس الشعوبية واصلا من أصول هذه الحركة التي كان من اغراضها النيل من العرب لانهم عرب والاشادة بالفرس لانهم فرس» . (١٠٩)

وقد يقال ان لابن المقفع اقوالا اشاد فيها بالعرب ، واثنى بها على ماكان من عبقريتهم في الحكم ، وبنوغهم في الأدب والحق ان هذه الاقوال اما منحولة وضعت على ابن المقفع وضعا ودست في اثاره دساً ، واما انه قالها تملقا لبني العباس ، وزلفى اليهم .

ومن الباحثين من ذهب الى ان شعوبية ابن المقفع كانت شعوبية عملية بمعنى انه كان يتظاهر بالولاء للعرب ، ولكنه كان يعمل على تقويض دولتهم ، والتطويح بحضارتهم عن طريق ماندب نفسه له من اشاعة التقاليد الفارسية في الحكم والحياة ، واحياء التراث الفارسي القديم ليصرف الناشئة عن الحضارة العربية ، ويغريهم بالتزود من التراث الاجنبي . (١١٠)

ولعل مما يدل على ان شعوبيته شعوبية عملية رسالة الصحابة التي كان الدافع الظاهر اليها رغبة ابن المقفع في اصلاح المجتمع العباسي وتنبيه الخليفة الى وجوه الخطل والاضطراب في انظمة الدولة وقوانينها وسائر المرافق فيها الا انها كما قال طه حسين كانت تحريضاً على الثورة على الخليفة واية ذلك ان المنصور غضب منها ولم يستجب لها . (١١١)

ويقول باحث اخر : ان هذه الرسالة كانت «طعنة شعوبية مسددة الى قلب الخلافة العباسية وان كان ظاهرها فيه الرحمة والعبرة بيواطن الامور» . (١١٢)

بشار بن برد

عندما حل العصر العباسي افلت ماكان معقودا من السنة الشعوبين وبرز في الحياة الادبية عدد من الشعراء الذين ينتمون الى اصول اعجمية ، ويتحلون عداوة العرب ، ويدينون بمبدأ تفضيل الشعوب عليهم وهم لم يفعلوا ذلك الاحسدا للعرب ورغبة في النكاية بهم ، لما كان من نشرهم للاسلام وتحريرهم للشعوب التي اضناها نيرالجور والظلم .

والشعر الشعوبي كثير ، الا ان الرواة لم يحفظو منه الا النزر اليسير وقد يكون ذلك «راجعا الى الرواة الذين امسكوا عن روايته رهبة من الخلفاء»[١١٣] او انه ابيد لتحرج الرواة من روايته لما كان من احترامهم للعرب بوصفهم مادة الاسلام ولان القدح فيهم والاساءة اليهم اثم لايريدون التورط فيه .

ومن الشعراء الذين نظمهم المؤرخون في سلك الشعوبيين بشار بن برد الذي اقترن اسمه بهذه الفئة ، وعد راساً من رؤوسها .

وبشار فارسي الأصل كان أبوه من سبي المهلب بن ابي صفرة ، ثم استقر ولاؤه في بني عقيل ، فشب بينهم ، واخذ اللغة عنهم ، فكان فصيح اللسان ، واضح البيان حتى انه فخر بخلو شعره من الخطأ او الزيغ ، وعزا ذلك الى نشأته بين اعراب اقحاح ، نساؤهم ورجالهم سواء في الفصاحة .[١١٤]

وكانت لبشار موهبة شعرية قليلة النظير فقد اجمع النقاد على انه ارفع شعراء عصره طبقة واكثرهم احسانا كما انه كان زعيم مذهب شعري جديد تميز بالاكثار من البديع ثم حذا حذوه في هذا الاتجاه العتابي ومسلم بن الوليد وابو تمام .

وفي شعر بشار مظاهر عديدة تثبت شعوبيته وتعكس مدى عدائه للعرب .

فهو دائم الفخر بالفرس كثير الاعتزاز بماضيهم ولو انه وقف عند ذلك لما كان عليه من حرج لأن المرء بطبعه يعتز بقوميته، ويتعلق بمآثر ابائه واجداده، ولكن بشارا كان يقرن ذلك بالتطاول على العرب، وبتجريدهم من كل فضل او مزية، وبالتبرؤ من الولاء لهم او الانتساب اليهم بل كان يحرض الاعاجم على نبذ الولاء للعرب والرجوع الى انسابهم .

يقول ابو الفرج الاصبهاني : «ان رجلا شريفا من بني زند وقف على بشار فقال :

يابشار لقد افسدت علينا موالينا تدعوهم الى الانتفاء منا وترغبهم في الرجوع الى اصولهم وترك الولاء وانت غير زاكي الفرع ولامعروف الأصل . فقال بشار : والله لاصلي اكرم من الذهب ولفرعي ازكى من عمل الابرار ومافي الارض كلب يود ان تسبك له بنسبه ولو شئت ان اجعل جوابك شعراً لفعلت ولكن موعدك غدا بالمربد فرجع الرجل الى منزله وهو يتوهم ان بشارا يحضر معه المربد ليفاخره فخرج من الغد يريد المربد فاذا رجل ينشد قصيدة كلها فحش وشتم فسأل عمن قال هذا فقيل له : هذا بشار فيك فرجع الى منزله ولم يدخل المربد ابداء.(١١٥)

ويحدثنا صاحب الاغاني ايضا فيقول : «دخل اعرابي على مجزأة بن ثور السدوسي وبشار عنده وعليه بزة الشعراء ، فقال الاعرابي : من الرجل؟ فقالوا : شاعر. فقال : امولى هو ام عربي؟ فقالوا بل مولى فقال الاعرابي : ماللمولى والشعر؟ فغضب بشار وصمت هنيهة ثم قال : اتأذن لي ياابا ثور؟ قال : قل ماشئت ياأبا معاذ ، فانشد بشار :

سأخبر فاخر الأعراب عني ... وعنه حين تأذن بالفخار
انا ابن الاكرمين ابا واما ... تنازعني المرازب من طخار
اذا انقلب الزمان علا لعبد ... وسفل بالبطاريق الكبار
ملكناكم فغطينا عليكم ... ولم نتصبكم غرضا لزار
احين كسيت بعد العرى خزا ... ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع ... بني الاحرار حسبك من خسار
تريد بخطبة كسر الموالي ... وينسيك المكارم صيد فار»(١١٦)

واذا كان لبشار عذر في ان يفخر بابائه فليس له عذر في ان يقسو على العرب كل هذه القسوة ، ويمعن في ثلبهم كل هذا الامعان ، وليس لذلك من سبب الا عداؤه لهم ، وحقده الدفين عليهم ، وهو حقد لا يأكل صدره فحسب ، بل يأكل صدور امثاله من الشعوبيين.

ومما يدلل على شعوبية بشار انه حين قتل المنصور ابا مسلم الخراساني غضب بشار ، وانشد قصيدة يندد فيها بالمنصور ، ويتوعده ، ويهدده بثورة الاعاجم عليه ، فيقول :

ابا جعفر ما طول عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل بسالم

كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الاعاجم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى وكان لما اجرمت نزر الجرائم
فاصبحت تجري سادرا في طريقهم ولا تتقي اشباه تلك النقائم

ولم ينس الفرس لبشار هذا الصنيع ، فلما استعادوا سلطانهم زمن المأمون ، بحثوا عن اولاد بشار ، فكافاؤهم ، واحسنوا اليهم ، وساعدوهم في شؤون الحياة . وكان طاهر بن الحسين نفسه قد تولى ذلك ، اكراما لبشار الذي كان لسان الشعوبية السليط ، وبوقهم المدوي(١١٧)

ولما كانت الشعوبية السياسية تقترن بالشعوبية الدينية فان بشارا لم يأل جهدا بالتهكم بالاسلام وبالتحريض على التحلل من فرائضه مشيعا في الناس مذهبا اباحيا هو مذهب ماني ومزدك .

كما كان بشار يقول بتقديم النار على الطين ويدعو الى عبادة النار ، ويرى ان ابليس خير من ادم عليه السلام لان ابليس خلق من النار ، وادم صور من الطين ولايمكن للطين ان يسمو سمو النار .

وقد روي عن بشار انه كان «يهزأ بالاسلام وبالأذان وينكر البعث والحساب ويفضل شعره على القران وقد سمع مغنية تغني بشعره فاعجبه صوتها وغناؤها فقال : هذا والله احسن من سورة الحشر» .(١١٨)

ذلك هو بشار الذي انتحل الزندقة دينا واعتنق الشعوبية وعداء العرب مذهبا فكان مآله هو القتل على يدي الخليفة المهدي سنة ثمان وستين ومئة وحين مات لم يبق شريف بالبصرة الا بعث لصاحب الزنادقة اي الموكل بملاحقتهم بالفرش والكسوة والهدايا ابتهاجا بمقتل بشار(١١٩)

سهل بن هارون

ومن الأدباء الشعوبيين ابو عمرو سهل بن هارون بن رهبون الفارسي الأصل .(١٢٠)

عاش هذا الأديب في البصرة اولا(١٢١) ، ونهل منها ثقافته الأدبية واللغوية فقد كانت في منتصف القرن الثاني الهجري كعبة العلم ، وموئل الأدباء والمفكرين .

ثم استقر سهل بن هارون في بغداد بعد ان طاف في الشام ، وجاب انحاء

العراق ، وعاد من رحلاته هذه مكتمل العقل ، تام العدة .(١٢٢)

ولما كان البرامكة كما تقدم يعتمدون على الفرس ، ويبوؤنهم المناصب الرفيعة فقد قربوا اليهم سهل بن هارون ووثقوا صلتهم به واتخذوه وغيره من الكتاب الفرس اللامعين ، ادوات بايديهم يسخرونهم لاحياء الثقافة الفارسية وتشويه تراث الامة العربية .(١٢٣)

وبعد ان اخمد الرشيد حركة البرامكة خاف سهل بن هارون على نفسه فأمنه الرشيد ، وجعله على دواوين الخلافة .(١٢٤)

ويبدو ان نجم سهل بن هارون قد أفل ايام الأمين الذي أحس بخطر الفرس على الخلافة فابعدهم عن السلطة كما ابعد صنائعهم ، والموالين لهم من الكتاب والشعراء وعندما آل الامر الى المأمون عاد سهل بن هارون الى البلاط العباسي ، وارتفع الى دست الوزارة .(١٢٥)

وليت المأمون اكتفى باسناد منصب الوزارة الى هذا الشعوبي ولكنه ناط به عملا اخر هو الاشراف على بيت الحكمة .(١٢٦) وليس من شك في انه استغل هذا المنصب فاساء الى التراث العربي ، بقدر ماخدم ثقافة قومه فنحلهم مالم يكن لهم من فكر وعلم .

وقد افاد سهل بن هارون من عمله خازنا لبيت الحكمة فقرأ واستوعب حتى تضلع من الأدب واللغة ، واصبح اديباً عالي الطبقة شهد له الجاحظ وروى له في كتاب البيان والتبين نماذج عدّها من رفيع القول وبليغ الكلام .

لقد كان سهل شعوبيا يمقت العرب ، ويؤلف في ثلبهم والتشهير بهم ، وقد سخر لهذا الغرض شعره ونثره فأثر عنه شعر يتطاول فيه على العرب ويفخر بقومه الفرس من ذلك :(١٢٧)

اتـريـد كـلـب أن أنـاسبها | قـد قـل من كـلـب لـذا العلم
اجـهـلت بيـتـا فوق رابيـة | فـرع الـنـجوم كـأنـه نجم
كـم بيت شعـر وسط مجهـلة | بـفـنـائـه الجعلان والبهـم

كما أثر عن سهل بن هارون نثر كثير يعلن فيه نزعته الشعوبية ويتصدى فيه للعرب ، مسفها عاداتهم ساخرا من تقاليدهم.ولما كان الكرم اعز مايفخر به العرب من تقاليده،وأرفع مايتصفون به من خصائص فقد هاجم سهل بن هارون هذه العادة

وكتب رسالة ضافية يسخر فيها من الكرم ويفضل البخل عليه ، ويرمي الكرماء بالاسراف والتبذير . (١٢٨)

وليست اثار سهل بن هارون وحدها تشهد بشعوبيته ، وانما هناك اقوال صريحة اثرت عن مؤرخين قدامى ومحدثين تدين سهلا بهذه النزعة،وترميه بمقت العرب ، والوقوف بصف اعدائهم .

فابن النديم يقول عنه «كان حكيما فارسي الاصل شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب» . (١٢٩)

ويقول ياقوت الحموي : «كان حكيما شعوبيا يتعصب للعجم على العرب ، شديداً في ذلك» . (١٣٠)

وصاحب فوات الوفيات يقول : «سهل بن هارون فارسي الأصل شعوبي المذهب شديد التعصب على العرب» (١٣١)

ويقول جولد زيهر :«ان العالم المشهور امين سر المأمون وخازن بيت الحكمة سهل ابن هارون كتب عدداً كبيراً من الكتب اظهر فيها تعصبه ضد العرب وفخره بالعجم ، وكان من متطرفي قومه في ايامه وادبه الغريب الذي اشتهر به انما وضعه ليسخر به من العرب فانه كتب سلسلة من الرسائل يمدح فيها البخل وماذاك الا لأن الكرم صفة من صفات العرب» . (١٣٢)

وقد جعله الدكتور بديع شريف صاحب كتاب الصراع بين العرب والموالي من جملة الكتاب الشعوبين الذين حاولوا الاساءة الى العرب عن طريق ما وضعوا عليهم من كتب وما ألفوا في ذمهم من رسائل ومصنفات . (١٣٣)

وقال الدكتور محمد نبيه حجاب :«ان سهل بن هارون ينتظم في سلك الشعوبية الذين سخروا أقلامهم للنيل من العرب وظنوا واهمين ان في مقدروهم بسحر بيانهم ان يقلبوا الحق باطلا ، والباطل حقاً ، ولكن هيهات ، فالحق يعلو ولا يعلى عليه» . (١٣٤)

فسهل بن هارون اذن شعوبي الرأي جرد قلمه السليط على العرب ، ووقع في تراثهم الرفيع ، وعاداتهم الكريمة تجريفاً وتشويهاً .

ادباء قاوموا الشعوبية

الاصمعي

ومن الادباء الذين تصدوا للشعوبية ، وشهروا أقلامهم بوجهها عبدالملك بن قريب الاصمعي المتوفى سنة خمس عشرة ومئتين للهجرة .

ولد الاصمعي ونشأ في حي بني اصمع في البصرة ، وفيها تلقى علومه واختلف الى اساتذتها من اهل العلم فاخذ عنهم ودون في الواحه ودفاتره ما كانوا يلقون اليه من شعر ولغة واخبار .

وكان ابو عمرو بن العلاء والخليل بن احمد ويونس بن حبيب من بين الذين لزمهم الاصمعي وافاد من علمهم . ولما اصاب الاصمعي من اساتذة البصرة وعلمائها حظا غير قليل من العلم عزم على ان يرتاد البادية ويخالط فصحاءها ويجمع اللغة من اصفى مواردها ، وينهل الشعر من السنة رواته ، ويحصله من صدور حفظته .

شد الاصمعي الرحال الى مضارب الاعراب في نجد وتهامة واخذ يطوف القبائل مسجلا مايقع اليه من الفاظ غريبة ونوادر مجهولة وشعر لم يعرف بعد ولم تبتذل روايته واخبار العرب واقاصيص بطولات اسلافهم قبل الاسلام وبعده وباحثاً عن انسابهم وافخاذهم وحافظا لهجاتهم .

وكان المربد موطنا اخر من مواطن التقاء الاصمعي بالاعراب فقد كان يتردد اليه ويصغي لما يدور فيه من محاورات ويستمع لما كان ينشد فيه من خطب واشعار فيقيد كل ذلك ثم يرويه لتلاميذه ومريديه .

لقد عرف الاعراب شغف الاصمعي بالرواية ، وشدة ولعه بكتابة مايسمعه منهم من الفاظ وتراكيب ، فكانوا يبدون عجبهم من فعله هذا .

يقول الاصمعي رآني اعرابي وانا اكتب مايقول فقال «ماانت الا الحفظة تكتب لفظ اللفظة» ويقول ايضا «مررت بجماعة من الاعراب وصرت اسألهم فقال احدهم : انت حتف الكلمة الشرود» ويقول «رايت في البادية صبية يتراجزون فوقفت اسمعهم فمنعوني فتنحيت جانباً وصرت ادون اقوالهم فمر بي شيخ من ذلك الحي ورأى ماأصنع فقال : اتكتب قول هؤلاء الاقزام الادناع فرحت بكلمة «ادناع» ومعناها السفلة فدونتها» .

وهكذا كان الاصمعي كلفا بتدوين مايسمع من شعر ولغة وغريب حتى جمع

... يجمعه غيره من اللغة الصحيحة والادب الجزل فبلغت دفاتره عشرات الاسفاط والصناديق . وكان لذلك شأن كبير في ارساء قواعد الدراسة الادبية واللغوية .

والذي يعنينا من الاصمعي في هذا المقام هو نضاله ضد الشعوبية ووقوفه الصارم بوجهها ذلك لأن الاصمعي كان شديد الحب لقوميته العربية كثير البغض لاعدائها .

لم يستطع الاصمعي ان يقف على الحياد وهو يرى ان الشعوبين يختلقون الاخبار ويزيفون الشعر ويهددون الحكم العربي ، ويسعون جاهدين الى اسقاطه واحياء دولة فارس . فخاض الصراع العربي الفارسي وحارب الشعوبين بمثل سلاحهم ، وقارعهم حجة بحجة ودليلا بدليلا .

وكانت البصرة اولا هي الميدان الذي شهد صراع الاصمعي مع الشعوبيين ومع زعيمهم أبي عبيدة بوجه خاص .

لقد كان أبو عبيدة الفارسي الاصل يتزعم معسكر الشعوبين ، ويغلو في كره العرب والافتراء عليهم . وكان الاصمعي يقود الجبهة العربية ويدير دفتها ويعلن بفخر حبه للعرب . واعتزازه بامجادهم ، ويذكرهم بكل ما يزينهم،ويتحدث بكل تجلة واحترام عن ابطالهم ونوابغهم في الادب والفكر والحرب .

واستمرت الحرب زمنا طويلا بين الاصمعي وأبي عبيدة وامثاله من الشعوبين الحاقدين وقد حفظت لنا كتب الادب والاخبار اطرافا من هذا الصراع العنيف وكان الاصمعي هو الغالب فيه اذ كان كثيراً مايهزم أبا عبيدة ويلزمه السكوت في مجالس المقارعة والمناظرة . وقد بلغ من تخاذل ابي عبيدة وضعف حجته انه كان يمتنع من دخول المسجد الجامع اذا سبقه الاصمعي اليه خوفاً من مجابهته امام الناس .

لقد ملأ الاصمعي جو البصرة بالحديث عن امجاد العرب وبطولاتهم ومناقبهم فأحنق ذلك الشعوبين واثار ثائرتهم فمضوا يكيلون له التهم ويلصقون به وبقبيلته العيوب . ولكن ذلك لم يثنه عن مقارعتهم .

وفي كتب الادب نماذج من اقوال الاصمعي التي كان يشيد فيها بالعرب ، فهو يقول مثلا : «خالجني الشك في كلمة استخذى» أهي مهموزة ام غير مهموزة فقلت لأحد الاعراب : اتقول استخذيت ام استخذأت قال : لا اقولها قلت : ولم ؟ قال : ان العرب لاتستخذي» ويقول ايضا من باب الحكمة : «ثلاثة يحكم عليهم

بالدناءة حتى تعرفهم : رجل يناقش في القدر على قارعة الطريق ورجل تشتم من فمه رائحة الخمرة ، ورجل يتكلم بالفارسية في بلد عربي».

وحين انتقل الاصمعي الى بغداد ، اشتد نشاطه في مقارعة الشعوبين واسهم في خضد شوكتهم، فقد رعبه ان تكون الخلافة مهددة وان يكونوا مستحوذين على دفة الامور . فعقد العزم على ان يجابههم ويكشف للرشيد خطرهم وقد افلح في مسعاه .

وكان دخول الاصمعي بلاط الرشيد يعد انتصاراً لمعسكر القومية العربية اذ كان البرامكة وصنائعهم يريدون لابي عبيدة ان يحل محل الاصمعي في قصر الرشيد ولكن سعيهم خاب واستطاع الاصمعي ان يكون المقرب الى الخليفة بعد ان ساعده في ذلك الوزير العربي الفضل بن الربيع .

لقد حاول الشعوبيون ان ينالوا من سمعة الاصمعي لدى الرشيد ويصدوه عن اصطفائه فكانوا يثنون على ابي عبيدة الفارسي ويزعمون انه اوسع علما من الاصمعي فيقولون ان با عبيدة يحفظ اخبار الاولين والاخرين وليس الاصمعي غير بلبل يطرب بنغماته ؛ يريدون أن الاصمعي لايحسن غير رواية الشعر . وعلى الرغم من الدعاوة السيئة التي بثها خصوم الاصمعي تبوأ هذا العالم مكانه في قصر الخلافة وارتقى الى درجة رفيعة فيه ثم انضم الى الجبهة العربية المناوئة للبرامكة وكان له دور بارز في القضاء عليهم .

ويروى انه هو القائل فيهم :

اذا ذكر الشرك في مجلس ... اضاءت وجوه بني برمك
وان تليت اية عندهم ... أتوا بالأحاديث عن مزدك

وبعد أن أدى الاصمعي دوره اللامع في محاربة الشعوبية في بغداد ، عاد الى البصرة مسقط رأسه ؛ وكان قد نيف على الستين فانقطع فيها للدرس والاقراء والتأليف حتى وفاته .

رحم الله عبدالملك بن قريب الاصمعي فقد ابلى بلاء حسنا في الدفاع عن قوميته العربية ، والمنافحة عن امجاد امته ، وكان الشوكة الحادة في جنوب اعدائها من الشعوبيين .

• المقول مستلة من كتاب «الاصمعي» للدكتور عبد الجبار الجومرد .

الجاحظ

ومن الأدباء الذين شهروا اقلامهم بوجه الشعوبية ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة خمس وخمسين ومئتين للهجرة .

لقد كان الجاحظ ابرز من دافع عن العرب ، حتى عده باحث معاصر المدافع الاول عنهم . والجاحظ عربي النسب ، ولذا وجد من الكتاب الفرس في عصره مقاومة ، كما لقي منهم الكيد والتآمر ، وحين اختاره المأمون لرئاسة ديوان الرسائل ، اعتذر الجاحظ من شغله خوفا من وشاية الفرس الذين كانوا يستأثرون بالمأمون ويتقلدون ارفع المناصب في عهده[١٣٧] .

وقد صرح سهل بن هارون عن حقده على الجاحظ ، فقال : «اذا ثبت الجاحظ في الديوان أفل نجم الكتاب»[١٣٨] .

اما ثقافة الجاحظ فكانت متنوعة متشعبة ، لذا يميل المحدثون الى وصفه بالموسوعي ، ولعل مصدر ذلك انه نشأ في البصرة ، وكانت تزخر بالعلوم ، ويلتقي في رحابها صفوة اهل الفكر من عرب واجانب فأتيح للجاحظ ان يفيد من هذا الجو ، وينهل مما فيه من ينابيع العلم والأدب .

وقد صادفت نشأة الجاحظ نشأة علم جديد ، استأثر باهتمام المفكرين ، هو علم الكلام ، الذي مست الحاجة اليه لكثرة المهاجمين للعرب والطاعنين عليهم وعلى دينهم . فوجد العلماء ان بهم حاجة الى التسلح بالمنطق وعلم الكلام ليردوا براهين الخصوم ، ويفندوا اقوال الاعداء . فأقبلوا على علم الكلام يتقنونه ، ويدرسون اصوله حتى برعوا في الجدل ، وافتنوا في المناظرة ، وكان الجاحظ في ذلك اماما لايجاريه احد .

لقد احاط الجاحظ بعلوم عصره ، والم بما كان شائعا فيه من ثقافات حتى وصفه القدماء بسعة المعرفة ، وترددت في كتب الأدب عبارات تقريظه ، والثناء عليه ، فالمسعودي يقول : «كتب الجاحظ تجلو صدأ الاذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لان نظمها احسن نظم ، ورصفها احسن رصف»[١٣٩] ويقول ابن العميد : «كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا»[١٤٠] اما ثابت بن قرة فيقول «ما أحسد هذه الامة العربية الاعلى ثلاثة ، وعد من بينهم الجاحظ»[١٤١] .

وقد كان طبيعيا ان يمقت الشعوبيون الجاحظ ويناصبوه العداء ، وذلك

لعروبته ، ولشده غيرته على هذه الامة ودينها ، فقد حاربه كثير منهم ، وسعوا في ذمه ، فكان ذلك مما حرك ابن الخياط الى تأليف كتابه «الانتصار» الذي انتصر فيه للجاحظ ورد على بعض خصومه.[١٤٢]

واذا أنعمنا النظر في كتب الجاحظ ورسائله وجدناه يدافع فيها عن العروبة والاسلام . فمن رسائله في الدفاع عن الاسلام كتاب (الرد على اليهود) و (كتاب الرد على من الحد في كتاب الله) وكتاب الرد على المشبهة . وغير ذلك كثير وهي رسائل تثبت ان الجاحظ وقف بالمرصاد لكل طاعن في الدين ، او ناقم منه او خارج عليه[١٤٣] .

واما دفاعه عن العرب فواضح لكل من يقرأ آثاره ، ويقلب النظر في رسائله وكتبه ، فقد وجد الجاحظ ان امر الشعوبية قد استفحل ، وان خطرهم جاوز الحد ، فسلط عليهم قلما أمضى من السيف ، ووضع فيهم لسانا احد من السنان ، فدلل على ان في هذه الامة رجالا يحفظون كرامتها ، ويصونون مقدساتها ، ويشيدون بما لها من مآثر.

وقد كان دفاع الجاحظ يتخذ مرة صورة الفخر بالعرب وتعداد مناقبهم فهو القائل «لم يكن لعبدالمطلب في قريش نظير ، كما انه ليس في العرب لقريش نظير ، كما انه ليس في الناس للعرب نظير[١٤٤] .

ويتخذ دفاعه مرة اخرى صورة الطعن على الشعوبية فهو القائل . «واعلم انك لم ترقوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا اعدى على دين ، ولا اشد ستهلاكا لعرضه ، ولا اطول نصباً ولا اقل غنما من اهل هذه النحلة وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على اكبادهم ، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة !![١٤٥] وهو القائل «وليس ادعى الى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة ، واي شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه اشرف منك ، وهو مقرانه صار شريفاً بعتقك اياه»[١٤٦] .

لقد حفلت كتب البيان والتبيين والبخلاء والحيوان والمحاسن والاضداد بالرد على الشعوبية ، كما انه ناضلهم في كتبه التي بادت ، ولم تصل الينا .

ولا أريد هنا أن أطيل في وصف مانعت به العرب ، وانما اكتفي بالاشارة الى بعض ذلك ، فقد نعت العرب بالوفاء ، ووصف الاعاجم باللؤم وانكار الجميل ،

ودلل على ذلك بالقصص والاخبار(١٤٧) .

ونعت العرب بأنهم خلدوا أنفسهم بالعمران والكتب ، في حين ان الاعاجم لم يكن لهم الا العمران . مما يدلل على ان العرب اخلد حضارة ، وأبقى أثراً على وجه الزمن ، لاندراس البناء . وبقاء الكتب .

يقول الجاحظ «كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون مثل بناء اردشير وبناء «اصطخر» وبناء «السدير» ثم أن العرب شاركت العجم في البنيان وتفردت بالكتب والاخبار والشعر والآثار فلها من البنيان غمدان وكعبة نجران وسد مأرب ، وقصر مارد . وقصر شعوب . والابلق الفرد وغير ذلك من البنيان ، وتصنيف الكتب أشد تقييداً للمآثر على ممر الايام والدهور من البناء لان البناء لامحالة يدرس ، وتعفو رسومه ، والكتاب باق من قرن الى قرن ومن امة الى امة ، فهو ابدا جديد والناظر فيه مستفيد ، وهو ابلغ في تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير»(١٤٨) .

والجاحظ يقرر هنا حقيقة خطيرة ، هي ان الفرس لم تكن لهم علوم مدونة في تأريخهم البعيد ، وان حضارتهم كانت تنحصر فيا تركوه من عمائر وقصور ، اما العرب فقد كانوا منذ فجر تأريخهم اصحاب علم وفكر ، واولي فن وعمران .

ذلك هو دفاع الجاحظ عن العرب والاسلام ، وهو دفاع حار ، نابع من قلب يعمره حب العرب ، ويملأه الاعتزاز بالاسلام .

ابن قتيبة

أشرنا في مقال سابق الى أنه ازاء هجمة الشعوبية على العرب ودينهم ، وملئهم الكتب والأسفار في النيل منها ، انبرى عدد من الشعراء والادباء الغير على العرب والاسلام ، يدافعون عنها ويردون على افتراءات الشعوبيين وتخرصاتهم . .

ولكن «التاريخ الادبي لم يحفظ لنا من ذلك الا النزر اليسير ، وهذا أمر طبيعي في عصر كان اغلب الرواة فيه من الفرس المتعصبين الذين عبثوا بحقائق التاريخ ، فلأن يجحدوا مفاخر العرب ، ويطمسوا ماوجه للفرس من هجاء اولى واهون»(١٤٩) .

على ان المدافعين عن العرب لم يكونوا كلهم من العرب ، بل كان بعضهم من الفرس الذين احبوا هذه الأمة ووفوا لها ، وكان حبهم ووفاؤهم كفاء ماقدمته لهم ، ولشعوب الارض كافة ، من خدمة جليلة ، فهي التي حملت اليهم رسالة الاسلام ،

وانقذتهم مما كانوا مرتكسين فيه من ظلام وجور .

وفي مقدمة الكتاب الذين نافحوا عن العرب ، وناضلوا الشعوبية ، وتجردوا للرد على مطاعنها ، ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، المتوفى سنة ست وسبعين ومئتين .

لقد كان ابن قتيبة الدينوري من أسرة فارسية ، كانت تقطن مرو ، ولذا كان يلقب أيضا بالمروزي(١٥٠) .

اما ولادته فكانت في بغداد ، كما ان فيها كانت نشأته ، وفي جوها العلمي الخالص تلقى علومه ، واتصل بكبار الأئمة في عصره ، كابي حاتم السجستاني والزيادي والرياشي ، فأخذ عنهم علوم اللغة والحديث والأدب ، حتى صار علما في ذلك فتصدر للاقراء والتدريس ، وشغل اعلى المراتب العلمية . وقد أخذ عنه كبار العلماء واللغويين كابن درستويه(١٥١) .

ولابن قتيبة مؤلفات كثيرة ، بعضها يتصل بالقرآن ومعانيه ، وبعضها يدور حول الحديث وغريبه ومشكلة وتأويله ، ومنها مايختص باللغة والادب ، والشعر والشعراء ، كما ان له كتبا تتعلق بالتاريخ والاخبار .

اما عقيدته فقد ذهب اكثر المترجمين له ، الى انه دين صدوق ، ورع ثقة ، حتى قال فيه احد العلماء : «كل بيت ليس فيه شيء من تصنيف ابن قتيبة لاخير فيه»(١٥٢) .

لقد كان ابن قتيبة غيورا على الاسلام ، معروفا بعاطفته الصادقة نحوه ، ولذا نراه ينهد للرد على الفرق التي نالت منه ، وخاضت في القرآن الكريم ، وتقولت عليه ، ونسبت اليه ماليس فيه .

ولكثرة دفاع ابن قتيبة عن الاسلام جعله فريق من الباحثين من الحشوية الذين يدافعون عن كل مايروى من الاحاديث(١٥٣) والحق ان ابن قتيبة لم يتشدد في دفاعه عن الدين الا لانه كان يخشى عليه من ذوي الاراء الحرة .

وكما دافع ابن قتيبة عن الاسلام كذلك دافع دفاعا حارا عن العرب ، حتى لقد كان في دفاعه عربيا اكثر من العرب .

ومن مؤلفاته في هذا الجانب كتابه المعروف ب (كتاب تفضيل العرب على العجم)

المنشور ضمن كتاب (رسائل البلغاء) وقد تناول في هذا الكتاب مطاعن الشعوبية ، فقندها ، وسفه اصحابها ، مصطنعا في ذلك الدليل المقنع ، والبرهان المادي .

ولم يكن ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد على صواب حين اتهم ابن قتيبة بالشعوبية ، معتمدا في ذلك على ماذكره في اخر كتابه تفضيل العرب على العجم من ان الناس متساوون في النشأة والمصير. لقد استغل ابن عبد ربه فكرة ابن قتيبه هذه ، فجعله من اهل التسوية ، وهم فرقة من الشعوبية . والحق ان ابن قتيبة لم يكن كذلك ، وانما كان يرد على هذه الفرقة بقوله : ان الناس متساوون امام الله يوم القيامة ، كما هم متساوون امام الدين في الأحكام وتطبيق الشرائع ، واما في الحياة فهم متفاوتون في الفضل والمناقب وطيب الاصل وكرم المنبت[١٥٤] واستدل على ذلك بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (اقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم) وقوله (اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه) .

وكان ابن قتيبة يشبه الناس بالجسد الواحد ، لاتستوي فيه اعضاؤه ، فالرأس افضلها ، والقلب اميرها .

لم يكن ماذكره ابن قتيبة اذن من ان الناس كلهم لأب وأم ، قد خلقوا من تراب ، الايقصد الوعظ ، والتذكير بحقيقة الانسان ، ليترك الغرور والكبرياء ، وليس في ذلك مايدعو الى اتهامه بالشعوبية ، او جعله من أهل التسوية منهم ، ذلك لأنه هنا يعظ ويرشد ، أما اهل التسوية فاصحاب رأي سياسي واذا زدنا على ذلك انه رد على اهل التسوية ، واوضح فساد رأيهم ، كما قدمنا ، ادركنا انه لم يكن منهم ، ولا من غيرهم من معتنقي الشعوبية .

لقد كان ابن قتيبة يحب العرب ، ويحترم فضلهم وجهادهم ، كما كان في طليعة المدافعين عنهم ، وهذا ماحدا بروكلمان على ان يقول : «من أشهر من تصدى للشعوبية ابن قتيبة والبلاذري وكلاهما من أصل فارسي»[١٥٥] .

بديع الزمان الهمداني

وفي العربية أديب كبير ، وناثر مبدع ، كان ممن حمل راية الدفاع عن العروبة ، وجرد قلمه للرد على الشعوبيين ، ذلك هو بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ثمان

وتسعين وثلثمئة للهجرة .

لقد أمد هذا الأديب الكبير الادب العربي «بظاهرتين جديدتين كل الجدة ، هما : الرسالة النثرية التي تتناول شؤون المجتمع بالنقد والتوجيه ، والقصة القصيرة التي ظهرت على مسرح الادب العربي لاول مرة متخذة اسم المقامة»[١٥٦] .

ومعنى ذلك ان بديع الزمان كان كاتبا سياسيا واجتماعيا في ان واحد ، فعلى الصعيد السياسي نجد البديع يناضل الشعوبية ، ويشدد النكير على معتنقيها ، وعلى الصعيد الاجتماعي نراه يخوض بقلمه مشكلات عصره ويعالج مابرز فيه من ظواهر سلبية في الحكم والعادات والتقاليد .

وقبل ان نعرض لكفاح بديع الزمان السياسي ، ونورد مثلا من ادبه الذي قاوم فيه الشعوبية ، نقف وقفة قصيرة عند أدبه الاجتماعي ، ورسائله التي نقد فيها المجتمع ، وتصدى بها لجور الحكام والقضاة ، فكانت هذه الرسائل اول صحافة شعبية ، تعبر عن رأي الشعب ، وتعالج مشكلاته وشؤونه العامة ، واذا اتذكرنا ان رسائل البديع كانت تحظى بسرعة الانتشار في المجتمع العربي الاسلامي ، ويقبل الناس على قراءتها وحفظها ، ويتسابق النساخ والوراقون الى كتابتها والالقاء بها بين أيدي المتأدبين ، اذا تذكرنا ذلك ادركنا ان تلك الرسائل قد ادت ما كانت تهدف اليه من ايقاظ جماهير الشعب ، وتأليبهم على البويهيين اولئك الحكام الاعاجم الذين نكب بهم المجتمع العربي ، وتسلطوا على مقاليد الامور فيه ، فساموه بروح فارسية خالصة ، توخت طمس عروبته ، ومسخ الكثير من أوجه اصالته ، كما نشروا في ربوعه الفقر والفاقة ، واشاعوا الفوضى واضطراب الامن .

لقد كتب بديع الزمان اذن كثيرا من الرسائل التي ندد فيها بظلم البويهيين وتحدث بها عما تلقاه الرعية بظلهم من عسف وجور ، وعما تفتقده من أمن وطمأنينة.من ذلك رسالته التي كتبها الى احد وجهاء ينسابور والتي حمل فيها على قابوس ملك جرجان الذي كان معروفا بالغلظه والعنف ، والبعد عن القصد في الاحكام ، وعدم النصفة في معاملة الناس .

يقول فيها : «قد علم الشيخ ان ذلك السلطان سماء اذا تغيم لم يرج صحوه . وبحر اذا تغير لم يشرب صفوه ، وملك اذا سخط لم ينتظر عفوه ... فهو سيد يغضبه الجرم

خفي . ولايرضيه العذر الجلي . حتى انه يرى الذنب وهو اضيق من ظل الرمح ، ويعمى عن العذر . وهو ابين من عمود الصبح ، وهو ذو اذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان . ويحجب بهذه العذر وهو برهان ، وذو يدين يبسط احداهما الى السفك والسفح . ويقبض الاخرى عن العذر والصفح وذو عينين يفتح احداهما الى الجرم ، ويغمض الاخرى عن الحلم(١٥٧) .

لقد كانت هذه الرسالة حملة شعواء على الملك الفارسي قابوس بن وشمكير ، ودعوة صريحة الى الثورة به والانتقاض عليه .

ومن رسائله في هذا الباب رسالته التي نقد فيها كبير القضاة في الدولة البويهية وكان قاضيا جائراً غير عف ولا نزيه ، جاء فيها : «فولي المظالم وهو لايعلم اسرارها ، وحمل الامانة وهو لايعرف مقدارها ، والامانة عند الفاسق خفيفة المحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال وتحملها الجهال .. فقبحه الله من حاكم لاشاهد اعدل عنده من السلة والجام ، ولا مزكى أصدق لديه من الصفر يرقص على الظفر ، ولا وثيقة احب اليه من غمزات الخصوم على الكيس المختوم ...

ولا كفيل اعز عليه من المنديل والطبق في وقتي الغسق والفلق .. واقسم لو أن اليتيم دفع في انياب الاسود ، بل الحيات السود لكانت سلامته منها احسن من سلامته اذا وقع بين غيابات هذا القاضي وأقاربه»(١٥٨) .

وهكذا وضع بديع الزمان قلمه في خدمة مجتمعه ووظف ادبه لفضح مظالم الحكام وجورهم في عصره ، فكانت كتاباته ظاهرة جديدة تشهد لأدبنا العربي القديم بانه لم ينفصل عن الجمهور ولم يشغل عن هموم الشعب وقضاياه .

واما موقف بديع الزمان من الشعوبية وما أفشت في المجتمع العربي من عادات فارسية فقد كان موقفا جريئا ، يدل على حب هذا الكاتب العربي لأمته ، وغيرته على دينه الاسلامي الحنيف .

لقد هدف ملوك بني بويه منذ استولوا على مقاليد الامور ، الى احياء التقاليد الفارسية وصبغ المجتمع العربي بها ، فكان مما أحيوه من الاعياد الفارسية ، عيد اسموه عيد الوقود . وهو عيد كانوا يوقدون فيه النيران ، ويرسلون فيها الوحوش ، ويطيرون في لهبا الطيور ، ثم يجلسون حولها يلهون ويشربون وكانوا يحتفلون بهذا العيد مرة كل عام .

لقد ساء بديع الزمان هذا التقليد الفارسي ، فحبر رسالة جريئة ، ذم فيها هذا العيد وافتتحها بالفخر بالعرب وبالرد على اعدائهم من الشعوبيين الحاقدين ، قال في هذه الرسالة :

«نحن اطال الله بقاء الشيخ ، اذا تكلمنا في فضل العرب على العجم وعلى سائر الامم ، اردنا بالفضل ما احاطت به الجلود ، ولم ننكر ان تكون امة احسن من العرب ملابس ، وانعم منها مطاعم ، ولكن نقول : العرب أوفى وأوفر ، وأوقى وأوقر ، وانكى وانكر ، واعلى واعلم واحلى واحلم ، واقوى واقوم ...»[١٥٩] .

ثم يقول «ان عيد الوقود لعيد افك ، وان شعار النار لشعار شرك ، وانما صب الله سيوف العرب على فروق العجم لما كره من اديانها ، وسخط من نيرانها ... فلا وقدت نار المجوس ، فالنار اولى بان يمقت شارعها ، وهي معبودة ، وانما جعل الله تعالى النار تذكرة ومتاعا ، ولم يجعلها ودا ولا سواعا ، ولم يضرب الله تعالى لها عيدا ، ولم يجعلنا لها عبيدا»[١٦٠] .

رحم الله بديع الزمان الهمذاني ، الاديب العربي الغيور الذي نذر قلمه لمقارعة الشعوبية ، ومقاومة الحكم البويهي الذي توخى مسخ المجتمع العربي، ومحو قيمه .

الشريف الرضي

ومن الادباء الذين خاضوا غمرة الصراع العربي الفارسي ابو الحسن محمد بن الحسين الملقب بالشريف الرضي ، المتوفى سنة ست واربعمئة للهجرة .

ينحدر الشريف الرضي من بيت رفيع ، هو البيت الهاشمي ، وكان والده شخصية سياسية مرموقة في عصره ، فقد كان نقيبا للطالبين ، وأميرا للحج ، وواليا لديوان المظالم ، كما كان فارسا شجاعا ، حتى ان ابا العلاء المعري وصفه بهذه الصفة حين رثاه فقال :

ذهب الذي غدت الذوابل بعده رعش المتون كليلة الاطراف

وكان لوالد الشريف الرضي شأن كبير في سياسة عصره ، واسهام واضح في احداثه ، وقابلية فذة في حل معضلاته بالرأي السديد ، والتدبير الحسن ، حتى قيل فيه «وكان مبارك الغرة ، ميمون النقيبة ، مهيبا نبيلا ، ماشرع في اصلاح امر فاسد الا وصلح على يديه وانتظم بحسن سفارته ، وبركة همته ، وحسن تدبيره

ووساطته»[١٦١] .

وأما ام الشريف فقد كانت موصولة النسب بالامام علي رضي الله عنه ، وقد كان لها اثر بارز في تربيته وتنشئته[١٦٢] في ظل هذه الاسرة وفي كنف هذا الأب الماجد الكريم نشأ الشريف الرضي ، إلا انه لم يكد يبلغ العاشرة من عمره حتى قبض عضد الدولة البويهي على ابيه ، وصادر املاكه ، واودعه السجن ، فكان عمل عضد الدولة هذا نموذجا لما لقيته الاسر العربية الكريمة على ايدي البويهين من تنكيل وتشريد .[١٦٣]

وقد تركت هذه الحادثة اسوأ الاثر في نفس الرضي،وفتحت عينيه على جور الأعاجم ، وغلظة سياستهم .

ولكن غدر الفرس بوالد الشريف الرضي واعتقالهم اياه ، ومصادرتهم املاكه لم يحل دون ان تنهض والدة الشريف بواجب رعاية ولدها ، واحسان تربيته وتعليمه ، فقد دفعت به الى اكابر علماء عصره ، ووصلته بالجو الثقافي فنال قسطا كبيرا من العلم وضرب بسهم وافر من المعرفة ، وقد تجلت ثقافة الشريف الرضي في ديوانه الضخم ، وفي عدد من المؤلفات التي تشهد له بأنه عالم واديب،وواحد من اساطين البيان والفصاحة في القرن الرابع الهجري .

والذي يعنينا من أمر الشريف الرضي في هذا المقال هو دفاعه الحار عن قوميته العربية ، ومقاومته الشديدة لتسلط الفرس على مقاليد الامور في الدولة العربية في العصر البويهي .

لقد الم الشريف الرضي وحز في نفسه ان يقوض البويهيون سلطان العرب ويستولوا على الحكم في العراق العربي ، كما اثار غضبه ان يبدل البويهيون وجه الحياة في المجتمع العربي ، وينشروا فيه كثيرا من العادات والتقاليد ، فوقف في وجه هذه الاحداث ، وسخر شعره للاعراب عن موقفه هذا .

فالذي يقرأ ديوان الشريف يجدان مقاومته للبويهين قد اتخذت مظاهر عدة بعضها صريح مكشوف ، وبعضها خفي رمز اليه الشريف رمزا ، واوحى به ايحاء .

فن مظاهر مقاومته الصريحة شعره الحماسي الذي فخر فيه بنسبه وعروبته وشجاعته واستعداده لقيادة الجيوش وخوض المعارك .

واذا علمنا ان احدا من شعراء العصر البويهي لم يزاول نظم الحماسة لانقضاء عهد

هذا الشعر ولاخلاد أولئك الشعراء الى الحياة الحضرية التي لاتستسيغ الفخر وشعر الحرب[١٦٤] ادركنا ان الشريف كان يريد من وراء هذا الشعر ان يلوح للبويهيين بان ثورة عارمة ستثب ، لتستأصل حكمهم وتعيد السلطان الى العرب اهله الشرعيين .

فالشريف الرضي حين يحدث نفسه بالمعالي ويمنيها بنيل الخلافة ، انما يومي الى هدف سام يلح عليه الحاحا متصلا ، هو الا دالة من الفرس ووصول رجل عربي قوي الى سدة الحكم ليصحح ذلك الوضع الشاذ الذي اصبح فيه الخليفة العربي تابعا للملك البويهي ، واصبح فيه هذا الاخير صاحب الامر والنهي ، والحل والعقد ، حتى انه ليعزل من يشاء وينصب من يشاء من الخلفاء . يقول الشريف الرضي :

سأمضي للتي لاعيب فيها	وان لم استفد الاعداء
واطلب غاية ان طوحت بي	أصابت بي الحمام او العلاء
انا ابن السابقين الى المعالي	اذا الأمد البعيد ثنى البطاء
اذا ركبوا تضايقت الفيافي	وعطل بعض جمعهم الفضاء
نماني من أباه الضيم نام	أفاض علي تلك الكبرياء

والشريف حين يهدد بالثورة ويومئ الى قرب اندلاع الحرب ضد البويهيين ، يصرح بان الجيش العربي سيأتي من الجزيرة العربية مشيرا بذلك الى انه يائس من مواطنيه في بغداد،لاستسلامهم لسلطان العجم ، وعجزهم عن مقاومة الحكم الاجنبي ، يقول الشريف :

ورب ركائب من نحو أرض	تحن اليك بالعجب العجاب
فكيف اذا رأيت الخيل شعثا	طلعن من المخارم والعقاب
عليها كل ابلج من قريش	لبيق بالطعان وبالضراب
يسير وارضه جرد المذاكي	وجو سمائه ظل العقاب
وعندي للعدى لابد يوم	يذيقهم المسمم من عقابي
فانصب فوق هامهم قدوري	وامزج من دمائهم شرابي
وأركز في قلوبهم رماحي	واضرب في ديارهم قبابي
فان اهلك فعن قدر جرى	وان املك فقد اغنى طلابي

وعلى كثرة ماكرر الشريف الرضي هذه التهديدات ، وعلى وفرة مانظم من شعر

حامي يلوح بالثورة ويهدد البويهيين بقرب زوالهم على ايدي العرب اقول : على كثرة مافعل الشريف ذلك لم تحدث تلك الثورة ولم يتحقق ذلك الحلم ، مما حمل الرضي على ان يعرب عن استبطائه اندلاع الثورة فيقول :

الى كـم ذا التردد في الأمـاني ... وكـم يـلوي بـنـاظري السراب
ولا نـقـع يـثـار ولا قـتـام ... ولاطـعـن يشب ولاضراب
ولاخـيـل مـعـقـدة الـنـواصي ... يموج على شكـائمهـا الـلـعـاب

وأما الشعر الذي رمز فيه الشريف الى كره الاعاجم واومأ به الى نفرته من المجتمع الذي حكموه واستولوا عليه ، فانه شعر تضمن الحنين الى جزيرة العرب ، والتعلق بمن فيها من ساكنين كما تضمن غزل الشريف بالحجازيات واشادته باصدقائه من الاعراب ، وتهنئته والده بالاعياد الاسلامية كعيد الفطر والأضحى وغير ذلك من معان .

لقد كان الشريف صوتا جريئا ضد تسلط الأعاجم،وكان شعره يمثل تيار الرفض والمقاومة للحكم الفارسي في العصر البويهي .

حركة سنباذ والراوندية والمقنع

لم يقتصر خطر الشعوبية في العصر العباسي على ما أثارته من نزعات فكرية تهدف الى صبغ المجتمع العربي بصبغة اجنبية . تبعده عن أصالته ، وتجرده من انسانيته ، وتعوق اداءه لرسالته . بل جاوزت ذلك . فكانت مصدر حركات سياسية اعتمدت على السلاح . وشهرت السيف بوجه العرب .

ولعل أول حركة شعوبية مسلحة هي حركة «سنباذ» التي قامت سنة سبع وثلاثين ومئة .

وسنباذ هذا كما يذكر الطبري كان «رجلاً مجوسياً من احدى قرى نيسابور ، وقد خرج بعد مقتل ابي مسلم الخراساني . محاولاً الثأر له ، ويبدو أنه كان من رجاله وصنائعه» [١٦٥]

وقد استطاع سنباذ ان يستولي على عدد كبير من البلدان ، فأرسل اليه الخليفة المنصور احد قواده العظام ، وهو أبو جعفر العجلي . فقاتل سنباذ قتالاً مريراً ، وقتل من أصحابه نحو ستين ألفاً ، ثم لقي سنباذ حتفه على يد القائد العربي .

لقد كانت حركة سنباذ احدى الحركات الشعوبية السياسية التي عملت على الانفصال عن الخلافة العباسية ، واحياء دولة الفرس الدارسة .

أن الأحداث التي رافقت هذه الحركة تكشف عن أن هدفها كان احياء دولة الفرس ، والعبث بالمقدسات الاسلامية .

يقول صاحب الفخري : «وكان سنباذ قد أفسد في البلاد التي غلب عليها فساداً كبيراً ، وسبى الذراري ، واظهر أنه يريد أن يمضي الى الحجاز ويهدم الكعبة» . [١٦٦]

واما الحركة السياسية الشعوبية الثانية فهي حركة (الراوندية) التي قامت بعد اخماد حركة سنباذ باربع سنوات .

لقد قامت هذه الحركة بقيادة جماعة من خراسان ، حاولت ان تبث بعض الافكار والعقائد الفارسية القديمة ، كفكرة تناسخ الارواح ، وألوهية الملوك .

ان الراوندية زعموا أن ابا جعفر المنصور هو ربهم ، وقد أتوا الى قصره ، واخذوا يطوفون حوله ، ويقولون هذا قصر ربنا . فحبس المنصور بعض رجالهم ، فثاروا واخرجوا المسجونين ، ثم زحفوا على القصر ، فخرج اليهم المنصور ماشياً . وحين تصدى القائد العربي معن بن زائدة ، ألقى نفسه عليه ، واخذ يدافع عنه ، ثم تجمهر

الناس ، وقاتلوا الراوندية ، حتى اخرجوهم من المدينة ، وظل المنصور يتعقبهم حتى اخمد حركتهم .(١٦٧)

ان حركة الراوندية ، كما يقول أو ليري ، تشير الى ان كثيراً من الفرس قد ظلوا على افكارهم القديمة برغم اعتناقهم الاسلام ، فكانوا على استعداد لعبادة الخليفة ، كما عبدوا ملوكهم من قبل ، ويستشهد أوليري على صحة دعواه بحركة الراوندية(١٦٨) . ان الراوندية اذن حركة شعوبية سياسية خطيرة كانت تهدف الى تشويه الاسلام عن طريق خلطه ببعض العقائد والمذاهب القديمة ، كي تضيع حقيقته ، وعقيدته السمحة ، وسط هذا العباب الكثيف من الخرافات والاكاذيب . واذا ماتم لهم ذلك ، أعانهم على اعادة دولتهم القديمة ، ولذا نظر المنصور الى الراوندية على انهم اعداء سياسيون له ، كما عدهم زنادقة ، يريدون ان تعود المجوسية ، أو أي شكل من أشكالها ، كالزرادشتية والمانوية أو المزدكية(١٦٩) . واذا كان المنصور قد نجح في القضاء على الراوندية ، فأن افكارهم وعقائدهم بقيت حية بعدهم ، وقد ظهرت حركات عديدة مسلحة ، هدفها الدفاع عن افكار الراوندية ، التي كانت مناوئة للاسلام .

من هذه الحركات حركة المقنع التي استمرت أحد عشر عاماً زمن الخليفة المهدي ، وكان المقنع ، زعيم هذه الحركة ، رجلاً فارسياً قبيح الخلقة ، اعور قصيراً ، وكان يخفي عواره بقناع من ذهب ركبه على وجهه ، وقد سمي لذلك بالمقنع . ادعي المقنع انه اله ، فاتبعه اناس كثيرون ، فارسل المهدي جيشاً لقتاله ، ولما لم يقو المقنع على القتال اعتصم باحدى القلاع ، فطال أمد الحصار ، فأنفض عنه اكثر جيشه ، ولم يبق معه غير نفر قليل «فأضرم ناراً عظيمة ، واحرق جميع مابالقلعة من دابة وثوب ومتاع ، ثم جمع نساءه وأولاده ، وقال لاصحابه : من احب منكم الارتفاع معي الى السماء فليلق نفسه في هذه النار ، ثم القى فيها نفسه واولاده ونساءه» .(١٧٠)

لقد انتهت حركة المقنع بهلاكه ، وهي حركة شعوبية فارسية ، دعت الى بعض العقائد والافكار المناوئة للاسلام ، كالدعوة الى الاباحية ، واسقاط الفرائض الدينية عن اتباع هذه الحركة .

يقول الاسفرايني «وكان المقنع أحل المحرمات لأتباعه ، واسقط عنهم الصلاة والصوم وجملة الفرائض ، وكان يقول لاتباعه انه هو الاله» .(١٧١)

ومن اخبث حيل المقنع انه كان يوهم أصحابه بأن القناع الذي على وجهه ، والذي يخفي به عواره ودمامة خلقته ، هو وقاية لهم من رؤية صورته الحقيقية ، وذلك لأن صورته الحقيقية على حد زعمه تحرق من يراها . ولكن بعض أتباعه الحوا عليه في أن يروه على صورته الحقيقية وقالوا له : نريد ان نراك ونحترق . ولما وجد منهم هذا الاصرار ، وعدهم يوماً بذلك . واصدر امره بوضع منبر في مقابلة الشمس ساعة الضحى ، وعلق عليه مرآة مقعرة ، بحيث تنعكس اشعة الشمس الساقطة عليها مجتمعة على الباب الذي يدخلون منه . ولما دخلوا أمر برفع الستر ، فلما وقعت عليهم الأشعة ، احترق منهم قوم ، وهرب الباقون . وبذلك خدع اتباعه ، فاغتروا به ، وظنوه على حق .

تلك هي حركات سياسية ثلاث ، قادتها الشعوبية الفارسية في العصر العباسي ، وسأحدثكم في مقال قادم عن حركات أخرى ، وعما كان لها من أثر واضح في الشعر العربي .

حركة الخرمية

ومن الحركات السياسية المسلحة التي قادتها الشعوبية في العصر العباسي حركة الخرمية. والخرمية –كما يذهب الى ذلك بعض الباحثين– هي اسم مشتق من (خرم) وهي لفظة فارسية معناها سعيد ولذيذ. وانما سميت الخرمية بهذا لأن أتباعها لا يعرفون غير اللذة دينا [١٧٢] لقد قامت الخرمية بعد اخماد الحركات الشعوبية السابقة، كحركة سنباذ وحركة ابي مسلم الخراساني، وحركة الراوندية وحركة المقنع.

وكان بابك الخرمي أحد زعماء هذه الحركة، وقد ظهر في أذربيجان ونواحيها، فتبعه خلق كثير. واستمر تمرده على الدولة العربية زهاء عشرين عاماً، ثم ظفر به الخليفة المعتصم، وكانت نهايته على يد هذا الخليفة وقواده.

يقول صاحب الاخبار الطوال: «متى أفضى الأمر الى ابي اسحاق المعتصم بالله لم تكن همته غيره. فأعد الأموال والرجال، واخرج مولاه الافشين– وهو قائد تركي– فلما رأى بابك أن العساكر قد احدقت به، والمذاهب ضاقت عليه، وان اصحابه قد قتلوا وقلوا، توجه الى ارمينية .... فوافاه سهل بن سنباط فأخذه أسيراً، ووجه به الى الأفشين، فاستوثق منه الأفشين، وكتب الى المعتصم بالفتح، واستأذن في القدوم عليه ومعه بابك واخوه» [١٧٣].

ثم أمر المعتصم بعد ذلك بقطع يدي بابك ورجله، وصلبه بمدينة سامراء، ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه الخروج على الدولة.

وما إن انتهت حركة بابك حتى قام رجل آخر من رجال الخرمية وهو المازيار.

ويبدو أن الافشين، المولى التركي، الذي تظاهر بالولاء للمعتصم، واسهم في اخماد حركة بابك، هو الذي حرض المازيار على التمرد، وتواطأ معه على القيام بحركة انفصال عن الخلافة العباسية، واحياء الديانة الفارسية القديمة. [١٧٤]

لقد كان الافشين يدبر للانفصال عن الدولة، ويتآمر مع المازيار من اجل احياء مذهب ديني كانا قد اتفقا عليه، وهو مذهب ثنوي مجوسي، غير أن المعتصم الذي أطاح ببابك، وأخمد حركته، قد استطاع ان يفتك بالافشين والمزيار، وان يصلبهما في سامراء أيضاً.

ان الخرمية على اختلاف فروعها هي امتداد للحركات المذهبية الفارسية التي توخت تقويض الدولة العربية، وطمس الدين الاسلامي، واحلال الديانات

الفارسية محله ، تلك الديانات التي لم تمت بانتشار الاسلام في ربوع فارس ، بل ظلت حية في نفوس المتظاهرين بالاسلام ، وماثلة في قلوب الذين لم يسلموا أصلا ، وكانت هذه الديانات تقوم في جوهرها على اللذة ، وشيوعية النساء والأموال .

ولم يكن الشعر العربي بعيداً عن الاحداث التي رافقت حركة الخرمية ، بل واكب تلك الأحداث ، وحرص على تسجيلها ، مصوراً ماداخل نفوس العرب والمسلمين من فرح غامر بالقضاء على هذه الحركة الشعوبية ، وبالاقتصاص من رؤوسها .

فالبحتري يمدح محمد بن يوسف الثغري ، أحد القواد العرب الذين أسهموا في اخماد حركة بابك ، ويصف لنا خلال المديح صورة بابك وهو مصلوب في سامراء ، يكابد الهجير ، ويقاسي حرارة الشمس ، فيتلون تحت اشعتها كالحرباء . يقول البحتري مخاطبا الثغري :

ما انفك سيفك غادياً او رائحاً
في حصد هامات وسفك دماء
حتى كفيتهم الذي استكفوك من
أمر العدى ووفيت أي وفاء
مازلت تقرع باب بابك بالقنا
وتزوره في غارة شعواء
حتى أخذت بنصل سيفك عنوة
منه الذي أعيا على الخلفاء
أخليت منه البذ وهي قراره
ونصبته علماً بسامراء
لم يبق منه خوف بأسك مطعماً
للطير في عود ولا إبداء

فتراه مطرداً على أعواده ... مثل اطراد كواكب الجوزاء
مستشرفاً للشمس منتصباً لها ... في اخريات الجذع كالحرباء

ويقول ابو تمام مصورا خلق بابك وغدره ، وما كان من كفره ومجوسيته ، وعبادته للنار :

مازال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الواري
ناراً يساور جسمه من حرها لهب كما عصفرت شق ازار
صلى لها حياً وكان وقودها ميتاً ويدخلها مع الفجار
وكذاك اهل النار في دنياهم يوم القيامة جُل اهل النار

ثم يصور ابو تمام الفرحة التي عمت قلوب العرب والمسلمين بنبأ موته ، ويقول ان فرحتهم برؤيته مصلوباً على الجذع تشبه فرحتهم برؤ هلال شوال ، كما أن حديثهم عن صلبه يشبه حديث البدو عن الغيث المنهمر ، إن رؤية بابك مصلوباً بجوار المازيار قد شفت الانفس ، وأقرت العيون :–

يامشهداً صدرت بفرحته الى أمصارها القصوى بنو الأمصار
رمقوا أعالي جذعه فكأنما وجدوا الهلال عشية الافطار
وتحدثوا عن هلكه كحديث من بالبدو عن متتابع الامطار
ولقد شفى الاحشاء من برحائها ان صار بابك جار مازيار

حركة الزنج

ومن الحركات السياسية المسلحة التي قادتها الشعوبية هي حركة الزنج التي قامت ضد الخلافة العباسية في منتصف القرن الثالث الهجري.

لقد تزعم هذه الحركة رجل فارسي يسمى علي بن محمد فاستطاع ان يجمع حوله كثيراً من الزنج، والمضطهدين من الغلمان والعبيد، واعدا اياهم بالتحرير، وزاعماً لهم انه منقذهم مما يكابدونه من فقر وفاقة، ويقاسونه من كبت واضطهاد.

وعندما اجتمع حول هذا الدعي عدد كبير من الانصار، خطبهم «ووعدهم ان يقودهم ويملكهم الاموال وحلف لهم الا يغدر بهم ولا يخذلهم ولايدع شيئا من الاحسان الا أتى به اليهم».[١٧٥]

ولم يكتف هذا الرجل بذلك بل ادعى علم الغيب وزعم لاصحابه انه يستطيع ان يعرف دخائلهم ويقف على ما يضمرونه من اسرار ليضمن طاعتهم له ويحكم قبضته عليهم. كما ذهب يتأول بعض ايات القران الكريم ليجعلها تتفق مع اهداف حركته.

لقد استمرت حركة الزنج اربعة عشر عاماً، وباتت تهدد الدولة العربية وتنذر بالخطر سلطان الخليفة العباسي. ومن هنا نشط الخليفة الموفق لاخماد هذه الحركة والقضاء على زعيمها فكان له ذلك سنة سبعين ومئتين للهجرة.[١٧٦]

ولابد لنا هنا ان نشير الى ان المؤرخين اختلفوا في صاحب هذه الحركة واضطربوا في حقيقة نسبه كما لم يتفقوا على الاهداف التي كان يسعى الى تحقيقها.

فمنهم من ذهب الى انه علوي النسب، ويرد على هذا بانه كان يعتنق نظرية الخوارج في الخلافة ويرى انها حق لكل مسلم، ولو كان عبداً حبشيا. ولو كان صاحب الزنج علوياً لمنعه نسبه من اعتناق رأي الخوارج.[١٧٧]

وظن بعض الباحثين ان حركة الزنج كانت تهدف الى تحرير العبيد ورفع الظلم عن الطبقات المضطهدة والمحرومة من المجتمع.

والحق انها لم تقم من اجل ذلك، والدليل على هذا ان صاحبها لم يكن زنجيا. وانما كان فارسياً يهدف الى تقويض الدولة العربية، وتشويه معالم الدين الاسلامي.

وقد وجد هذا الدعي ان رفع شعار (تحرير العبيد) هو خير ستار يخفي وراءه مطامعه ويجمع له الانصار والمؤيدين .

ولعل خير دليل على ان من اهداف صاحب الزنج القضاء على الطابع العربي للخلافة انه كان متمسكا بمبدأ الخوارج في الخلافة وهو مبدأ كان يجيزها لغير العرب من اي أصل او جنس .

ومن هنا يعد المنصفون من المؤرخين ان حركة الزنج هي حركة شعوبية لم يكن لصاحبها من هم الا الوصول الى السلطة ، والقضاء على الدولة العربية ؛ ونقل الخلافة الى عنصر اجنبي هو الفرس .(١٧٨)

ومما يؤيد خبث طوية صاحب الزنج . وفساد عقيدته انه كان يريد تحقيق مطامعه باي وسيلة ولو ادى ذلك الى قتل الانفس وازهاق الارواح البريئة . ولذا اتسمت حركته بالعنف والقسوة وارتكب صنوف الظلم والاضطهاد واقدم على التخريب. والتدمير وقتل الاطفال والشيوخ والنساء . يقول المسعودي ان هذا الرجل كان يقتل الصغير والكبير والذكر والانثى ويخرب وقد اتى بالبصرة في وقعة واحدة على قتل ثلاثمئة الف من الناس» .(١٧٩)

ولم يكن الشعر العربي بعيدا عن احداث حركة الزنج وماصاحبها من تخريب وتدمير بل كان سجلا اميناً صور تلك الحركة ، ونقل للاجيال ما كابده الناس بسببها من صنوف العذاب .

فابن المعتز يصور صاحب الزنج بانه رجل شرير يفوق فرعون في ظلمه وشره ، ويقول عنه انه امام من ائمة الكفر ، كان يخدع الزنج ، ويمني المحرومين بانهم سيملكون الاموال ، وسيدخلون بغداد ، ويقضون على الخلافة ، ثم هو يضيف الى هذه المزاعم ادعاءه علم الغيب . يقول ابن المعتز :

شيخ ضلال شر من فــــــرعون ... لحيــــــتــــه كــــــذنب البرذون
مــازال حــيــنــا يخدع الــسودانا ... ويــدعي الــبــاطــل والبهــتــانا
وقــــال سوف افــــتـح الــسوادا ... وامــــلك الــــعــبــاد والــبلادا
ويــدخــلون عــاجلا بــغــدادا ... فــلم يــر الــكــذاب ذا ولا ذا
وقــــال اني اعــــلم الــغــيوبا ... لم يــــر فيهــــا عــــالماً مجيــــبــــا

وهذا ابن الرومي يتحدث عما ارتكبه صاحب الزنج من قتل للانفس وازهاق للأرواح، ويصف ماناله البصرة على يديه من تدمير وتخريب .

اي نوم من بعدما حل بالبصرة   من هنات عظام

اي نوم من بعدما انتهك الزنج جهاراً محارم الاسلام

اقـــدم الخائن الـــلعين عـليهـا   وعلى الله ايما اقـــــــــــدام
وتـــــمى بـــغير حق امـــامـــاً   لاهـــدى الله سعـــيــه من امـــام
لهف نـفسي عـليك ايتها الـبصرة   لهفـــاً كـــمـــثـــل لهب الضرام
بـينما اهــلـهـا بـاحسن حــال   اذ رمـاهـم عـبـيدهم باصطلام
صـبحوهـم فـكـان القـوم منهم •   طول يوم كـــانـــه الف عـــام
رب بـيت هـنــاك قـد اخـربوه   كـان مـاوى الضيفـات والايـتـام
رب قصر هـــنـــاك قـــد دخـلوه   كـان من قـبـل ذاك صـعب المرام
رب ذي نـــعــــمـــة هـنـاك ومـال   تـــــركوه محالف الاعـــــــدام
كـم رضـيـع هـنـاك قد فطموه   بشـبا السيف قبل حين الفطام

وعندما اخمدت حركة الزنج ولقي صاحبها حتفه على يد الموفق كان من الطبيعي ان يفرج الناس بالقضاء على هذه الحركة الشعوبية الهدامة . وقد عبر الشعراء عن فرحة الناس هذه بشعر رائع ومؤثر منه هذه الابيات التي يخاطب فيها ابن الرومي الموفق فيقول :

حصرت عـمـيد الزنج حتى تخاذلت   قواه واودى زاده المتـــــــــزوّد
فـظـل ولم تـقـتـله يلفظ نفسه   وظـل ولم تـأسره وهو مقـيد (١٨٠)
فما رمـتـــه حتى استــقـل بـرأسه   مـكـان قـناة الـظـهر اسمر اجرد

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] **الشعوبية وتاريخ الادب العربي** [illegible]

الشعوبية ورواية الشعر العربي

كان العرب يعتمدون في تسجيل الشعر على الرواية الشفهية ، وكانوا يحفظونه في لوح الذاكرة ، لا لأن الكتابة لم تكن فاشية فيهم حسب ، وانما لانهم كانوا يحبون رواية الشعر ، ويميلون الى انشاده والتغني به .

وحين بدأ عصر التدوين في القرن الثاني الهجري ، لم يرجعوا في تدوين الشعر الى ديوان مكتوب ، او صحف محررة ، وانما رجعوا الى ذاكرة الحفاظ وصدورهم ، يستخرجون منها تراث العرب الشعري .

لقد رحل العلماء الى البوادي ، واخذوا يجولون فيها ، بحثا عن الشعر العربي ، وسعيا وراء التراث اللغوي ، يجمعونه من افواه العرب الخلص ، ثم يدونونه في صحفهم ودفاترهم ، وكان عملهم هذا عملا جليلا ، حفظوا به اللغة ، وصانوا به التراث ، وعملوا على تسجيلها للاجيال .

وكان من بين الراحلين الى البادية جماعة من الرواة الشعوبيين ، الذين اسلموا في الظاهر ، وظلوا يبطنون الحقد على العرب وعلى دينهم ، ويحاولون ان يزيفوا تراث العرب ، ويفسدوا ادبهم ، ويدسوا فيه ما لم يقله العرب ، ليتهيأ لهم التقول عليهم ، والقدح في تاريخهم .

وقد تجلى عبث هؤلاء الرواة في تاريخ الادب العربي بمظاهر عدة منها :

١ — نسبة القصيدة الى غير قائلها . ففي ديوان الادب العربي قصائد كثيرة نسبت الى شعراء لم يقولوها ، فهذه قصيدة تنسب الى الشنفرى وهي لغيره ، وتلك قصيدة تحمل على الحطيئة وتستقر في ديوانه ، وهو لم ينطق بها ... وثالثة للنابغة ورابعة لتأبط شرا وهما لغيرهما ... وهكذا وحسبك بهذا تزييفا للتاريخ الادبي ، وعبثا بمادته وحقائقه . ولم يخف هذا العبث على النقاد (العرب) وانما ادركوه ، وضجوا بالشكوى منه ، حتى قال صاحب المفضليات : «سلط على الشعر من حماد ما أفسده فلا يصلح ابدا ، فقيل وكيف ذاك ؟ ايخطئ في روايته ام يلحن ؟ قال ليته كان كذلك فان اهل العلم يردون من يخطئ الى الصواب»(١٨١) وقد عني الانتحال .

٢ – اختلاق الشعر الذي ينال من العرب ، وينسب اليهم ما ليس فيهم من اخلاق وعادات ، لتشويه صورة مجتمعهم ، والغض من اقدارهم . فقد وصلت الينا روايات وحكايات كثيرة هدفها ثلب العرب ، غير ان المؤرخين فرزوها ، ونصوا على بطلانها ، ونبهوا على انها مما اختلقه الشعوبيون ووضعته عصبيتهم على العرب .

٣ – ومن مظاهر عبث الشعوبين بالتاريخ الادبي العربي ما اختلقوه من قصائد نسبوها الى بعض الشعراء العرب ، وهي تشيد بالفرس ، وتمجد ملوكهم . وكان الرواة الشعوبيون بعملهم هذا قد اوغلوا في تزييف التاريخ ، وقلب حقائقه . فبعض الشعراء الذين نسب اليهم انهم مدحوا الفرس ، واشادوا بهم كانوا معروفين بعدائهم للفرس . ومن هؤلاء لقيط بن يعمر الذي حذر العرب من الفرس ، ودعاهم الى التوحد من اجل دحرهم ، وذلك في قصيدة مشهورة معروفة .

٤ – وامتد عبث الرواة الشعوبين الى حقائق اللغة وقوانين النحو والصرف . ففي كتب اللغة شواهد كثيرة كانت مما اختلقه الرواة الشعوبيون ولاشك في أن هذه الشواهد المختلقة قد بنيت عليها قواعد نحوية ولغوية لا اساس لها من الصحة .

ولعل الاسباب التي دعت الرواة الشعوبيين الى اختلاق الشواهد اللغوية هو تسويغ اخطائهم ، وايجاد التخريجات لها . لقد كان اللحن فاشيا في الرواة الشعوبيين ، ولاجل ان يدفعوا عن انفسهم معرة اللحن ، في مجتمع يعتز بلغته ، ويزدري من لا يحسنها ، ذهبوا يختلقون الشعر ، وينسبونه الى العرب ، ليكون الخطأ صواباً ، والغلط قانوناً ، وفي ذلك افساد للغة ، وازهاق لحقائقها ، لم يتورع عنه الشعوبيون الحاقدون .

ولم يكتف الشعوبيون بهذا ، بل راحوا ينسبون الى بعض العرب الغلط في اللغة ، ليظهروا انهم يتقنون العربية اكثر من اتقان العرب لها ، وفي ذلك ايضا تزييف للتاريخ الادبي .

غير أن من حسن حظ العربية وتاريخها وادبها ان قيض الله لها من ابنائها علماء ينزهونها من تخرصات الشعوبيين وينقون ادبها ونحوها ومعجمها

من اختلاقهم .

اسطورة عبد الحميد بن يحيى الكاتب اول كاتب في اللغة العربية

في تاريخ الادب العربي اراء كثيرة اشاعها الشعوبيون ، تنويها بما للفرس من اثر مزعوم في لغة الضاد وأدبها . وقد وقف مؤرخو الادب الغيارى ازاء هذه الاراء الغريبة محاولين تفنيدها ، وتنقية تاريخنا الادبي منها .

ان هذه الآراء لم تكن الا مفتريات دفع اليها تعصب الشعوبيين على العرب ، ورغبتهم الشديدة في تزييف تاريخهم ، وقلب حقائقه ، ورد كل مظاهر الابداع العربي الى اصول فارسية او يونانية ، حسدا للعرب ، وغضا من مكانتهم .

لقد نظر الفرس بعد اعتناقهم الاسلام ، فوجدوا ان العربية بما تحمل من فكر ، وتزخر به من ثراء قد هزمت لغتهم الفهلوية ، واظهرتها بمظهر العاجز ، فما كان منهم الا أن اقبلوا على العربية يتعلمونها ، ويجتهدون في اتقانها ، متخلين في ذلك عن لغتهم ، معترفين بقصورها عن ان تكون لغة العلم ، في عصر ازدهرت فيه الثقافة العربية .

ومع أن الفرس قد تلمذوا للعرب في كل نواحي العلم ، وتخرجوا بهم في جميع مجالات الثقافة ، الا أن عصبية كثير منهم على العرب قادتهم الى انكار هذه الحقيقة ، وحملتهم على قلبها .

فعبدالحميد بن يحيى الكاتب لم يبرع في الانشاء ، ولم تكن له تلك المنزلة المرموقة في فن الكتابة ، الا لأنه قرأ خطب الامام علي ورسائله الفنية ، وتبصر بما فيها من مزايا بلاغية ؛ وقد اعترف هو نفسه بهذه الحقيقة فقال حين سئل عما مكنه من البلاغة : «حفظ كلام الاصلع» يعني الامام عليا رضي الله عنه [١٨٢]

ومع وضوح هذه الحقيقة ، واعتراف عبد الحميد بن يحيى الكاتب بها ، نجد الشعوبيين يجعلون عبد الحميد هذا امام الانشاء في العصر الاسلامي ، ومؤسس الكتابة الفنية في الادب العربي .

فالشعوبيون يقولون : «بدئت الكتابة بعبدالحميد» متجاوزين في مقولتهم هذه اعلام الانشاء العربي الذين سبقوا عبد الحميد ، وكانوا اساتذته ومخرجيه .

ان أكبر فرية في تاريخ الادب العربي ان نجعل عبدالحميد بن يحيى الكاتب مؤسس الكتابة الفنية في الادب العربي ، ذلك لأن العربية عرفت كتابا وخطباء كانوا

في ذروة البلاغة وكانت اثارهم في مرتبة مرتفعة لم يستطع عبد الحميد نفسه ان يرتفع اليها ، على الرغم من تطبيل الشعوبيين وتزميرهم له .

ولست ادري كيف يشتهر عبد الحميد بن يحيى الكاتب في فن النثر . ما لم يكن قد وجد امامه عند استعرابه ، نماذج من النثر العربي الرفيع ، والخطب البليغة . مكنه حفظها ، والتبصر فيها من أن يكون كاتبا معدودا،او ناثرا ذا خطر .

واذا كان العرب قد انتظروا حتى يستعرب عبدالحميد بن يحيى ليتدع لهم النثر الفني ، فماذا نسمي نثر القران الكريم ، ورسائل عمر بن الخطاب ، واثار علي بن ابي طالب الكتابية والخطابية . اليست هذه الاثار كلها من النثر الفني الرفيع ، بل اليست هي من النثر في اعلى مراتبه وارفع درجاته ؟ .

واننا اذا وازنا ما كتبه عبد الحميد بن يحيى بما كتبه او خطب به الامام علي مثلا لوجدنا ان بين نثر الرجلين بونا بعيدا ، ولوجدنا ان نثر عبدالحميد يفتقر الى كثير من مقومات نثر الامام علي وعناصر روعته البلاغية ، بل ان نثر عبد الحميد يبدو عليه احيانا انه نثر رجل مستعرب لم يتمكن من اللغة تمكن الفصحاء الأصلاء .

لقد عرف العرب اذن النثر الفني منذ عصر مبكر ، بل انهم عرفوه قبل الاسلام . وكانت لهم منه نماذج رائعة الا ان اكثره سقط من يد الزمن ولم يصل الينا.والدليل على ان للعرب نثرا فنيا قبل الاسلام هو القران الكريم نفسه الذي نزل على طرائق العرب في التعبير واساليبهم في صياغة الكلام وبسبب ذلك فهمه العرب ، ولم يغرب عنهم شيء مما فيه . وظل العرب ينشئون النثر الرفيع في صدر الاسلام والدولة الاموية وحين استعرب عبد الحميد نهل ثقافته اللغوية والفنية من رجال البيان العرب ، واتخذهم اساتذته في هذا الميدان ، ولم يسعه حين اشتهر ان ينكر هذه الحقيقة كما انكرها الشعوبيون المتعصبون فذهبوا الى ان الكتابة بدئت بعبد الحميد .

رحم الله استاذنا الدكتور محمد مهدي البصير فقد كان شديد الاستغراب من هذا الرأي الشعوبي الذي ينكر بديهة ظاهرة ، ويطمس حقيقة سافرة ، تلك هي حقيقة ان النثر فن عربي قديم ، لم يكن للاعاجم يد في وجوده او نشأته ، وان عبد الحميد الذي يزعم له ابتكار هذا الفن لم يكن ليبرع فيه ، لو لم يتمرس بقراءة وحفظ ايات النثر التي سطرها بلغاء العرب وابيناؤهم كعمر وعلي وزياد والحجاج وابي حمزة الاباضي وسواهم .

لقد كان الدكتور محمد مهدي البصير يقول : ان شهرة عبد الحميد بن يحيى الكاتب لم تقم على أساس صحيح ، وان الكتابة لم تبدأ به وان زعامة الانشاء في العصر الاسلامي ان كانت لأحد فانما هي لعلي بن ابي طالب ثم لعمر بن الخطاب من بعده [١٨٣] . كما كان يذهب الى أن العصبية هي التي سولت للشعوبيين ان يقدموا عبد الحميد على علي وعمر واضرابهما من بلغاء العرب ، ويسندوا اليه امامة صناعة الانشاء [١٨٤] .

اصالة الزخرف الفني في اللغة العربية

من الآراء الغريبة التي أشاعها الشعوبيون في تاريخنا الادبي ، ان الزخرف الفني الذي عرفه النثر العربي يرجع الى اختلاط العرب بالفرس . بمعنى ان العرب لم يكونوا قبل اتصالهم الواسع بالفرس يعرفون الالوان البلاغية التي يعمد اليها لزخرفة الكلام ، وتحسينه وتوفير ضروب الزينة له .

وقد راق هذا الرأي الغريب اعداء الامة من المستشرقين ، فراحوا يذيعونه في ابحاثهم ، ويحاولون اقامة الدليل عليه .

فالمسيو مرسيه المستشرق الفرنسي يذهب الى أن الكتاب المولعين بالزخرف البلاغي كان اكثرهم من الفرس المستعربين [١٨٥]

ويذهب الدكتور زكي مبارك الى أن رأي مرسيه هذا هو رأي مدرسة استشراقية قديمة كان زعيمها رينان ، وهي مدرسة اولعت برد عناصر الابداع العربي ، ومظاهر حضارة الامة الى اصول غير عربية . [١٨٦]

ومن الغريب ان بعض الادباء العرب كانوا يشايعون المستشرق الفرنسي مرسيه في رأيه هذا ، ويرون ان الفرس هم الذين اوحوا الى الكتاب العرب فنون البديع كالسجع والتورية والطباق والجناس . ومن هؤلاء طه حسين .

وعلى الرغم من ضعف هذا الرأي وتهافته ، وسهولة التدليل على بطلانه ، فان الدكتور زكي مبارك رحمه الله افاض في مناقشته وخصه بفصل مسهب من فصول كتابه «النثر الفني في القرن الرابع الهجري»

ولعل اوضح دليل على اصالة الزخرف الفني الذي طرز به الادباء العرب القدامى

شعرهم ونثرهم هو القران الكريم .

يقول الدكتور زكي مبارك . «ان الزخرف عنصر اصيل[١٨٧] في اللغة العربية ، وعندي لذلك شاهد لا يجحد هو القران»

وكما راق بعض المستشرقين هذا الرأي ، اي عدم اصالة الزخرف الفني في اللغة العربية ، كذلك راقهم رأي آخر متصل به ، هو ان العرب لم يكن لهم قبل الاسلام نثر فني . وبذلك تكون الشعوبية قد اشاعت شبهتين في تاريخنا الادبي اولاهما ان النثر الفني ليس عميق الجذور في ادب العرب ، وانما هو فن طارئ عرفه العرب بعد الاسلام وبعد ان اتسع نطاق احتكاكهم بالفرس وغيرهم من الامم الاخرى والثانية ان العرب كانوا قبل الاسلام يجهلون الزخرف البلاغي ولم يعرفوه الا بفضل الفرس .

وقد تلقف بعض المستشرقين هاتين الشبهتين ، وعملوا على اشاعتهما ، في العصر الحديث ، والاحتجاج لها . والتدليل عليهما .

وحين ادرك هؤلاء المستشرقون ان القرآن الكريم هو خير دليل على بطلان هاتين الشبهتين كما سنرى راحوا يروجون رأيا غريبا مؤداه أن القرآن ليس بشعر ولا نثر وانما هو قرآن . وصاروا تبعا لذلك يقسمون الكلام الفني الى شعر ونثر وقرآن[١٨٨] . وقد حسبوا بهذا انهم اهتدوا الى مخرج ينجيهم من تورطهم في انكار ان يكون للعرب نثر فني ناضج قبل الاسلام ويساعدهم على تبني الزعم الشعوبي القائل بان العرب اخذوا طرائق النثر الفني ووسائل التزيين البلاغي عن الفرس .

وقد فات هؤلاء المستشرقين ومشايعيهم من العرب ان القران نثر ، وانه جار على اساليب العرب في تأليف الكلام ، وصياغة الجملة . وفي القران الكريم نفسه نص على ان الرسول انما بعث بلسان قومه ليبين لهم ، وهذا يعني أن القران لم يتزل بالفاظ العرب حسب ، وانما نزل بطرائقهم في تأليف العبارات واساليبهم في الاداء ، ففهمه العرب اصدق فهم ، ووصل الى قرارة نفوسهم فملأها بالايمان ، ولو نزل باساليب لايفقهها العرب ولم يكن لهم بها عهد لما فهموه ، ولما تأثروا به .

ان القرآن الكريم اذن نمط من النثر ولكن بعض المستشرقين ومن شايعهم ذهبوا الى انه لا شعر ولا نثر لئلا يحتج به على ان للعرب قبل الاسلام نثرا فنيا فيبطل بذلك الزعم الشعوبي القائل بان الفرس هم الذين ادخلوا النثر الفني الى اللغة العربية وهم الذين ادخلوا على النثر اسباب الزخرف والوان التزيين البلاغي من سجع وطباق

وتورية وجناس وازدواج .

ان كلا الزعمين باطل وان القران الكريم لما تقدم هو خير دليل على بطلان هذين الزعمين اللذين خلقتها العصبية الشعوبية على العرب ورغبة هذه العصبية في ان تسلب العرب ما ثبت لهم بالدليل القاطع من تفوق حضاري ونضج ادبي .

فالامة التي نزل بلسانها القران ، وجاءت اياته البينات على غرار ما الفته من اساليب،هي امة بلغت في مضمار النثر الفني درجة رفيعة اهلتها لأن تخاطب بمثل القران، وان هذه الامة لم تكن بها حاجة الى ان تتلق النثر الفني عن غيرها من الامم التي احتكت بها .

واذا علمنا ان القران الكريم والموثوق بروايته من النثر العربي الذي قيل قبل الاسلام كان السجع وغيره من فنون الزخرف البلاغي ابرز سماتها واجلى خصائصها ، اذا علمنا ذلك ادركنا أن الحلى البلاغية هي عربية اصيلة . وليست مستوحاة من ادب فارسي او يوناني كما حلا للشعوبيين القدامى ان يذيعوه،وكما اراد بعض المستشرقين وهم من شعوبية هذا العصر أن يؤكدوه ، حسداً للأمة . وتزييفا لحقائق تاريخها الادبي .

العرب والدواوين

ومن الاراء الغريبة التي اشاعها الشعوبيون في تاريخنا الادبي هو ان الدواوين في الدولة العربية الاسلامية كانت تكتب بالفارسية وغيرها كالرومية والقبطية وانها بقيت كذلك حتى عربت في العصر الأموي وفي خلافة عبد الملك بن مروان على وجه التحديد.

ويتصل بهذا الرأي ان الرسائل الديوانية والرسائل الاخوانية هما فنان لم يعرفهما العرب، وانما دخلا اللغة العربية بفضل المتعربين من الكتاب الذين تحدروا من اصول فارسية او رومية.

وقد تداول المؤرخون هذين الرأيين من غير تمحيص، وأنزلوهما منزلة المسلمات، فاستقرا في كتبنا ومناهجنا الدراسية وصار الدارسون يرددونهما من غير تنبه لما فيهما من ظلم للحقيقة، ومجافاة للواقع، وتحيف للتاريخ العربي.

فالدواوين لم تكن كلها تكتب بالفارسية او الرومية كما يزعم الشعوبيون المولعون بطمس مظاهر الحضارة العربية ورد كل تقدم فكري في تاريخنا الى اصول غير عربية، وانما كانت الدواوين تكتب بالعربية، ويتولى تحريرها والقيام على شؤونها كتاب عرب خلص الا ديوان الخراج، فانه كان يكتب في العراق بالفارسية وفي الشام بالرومية.

يقول الجهشياري: «ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان احدهما بالعربية لإحصاء الناس واعطياتهم وهذا الذي كان عمر قد رسمه، والاخر لوجوه الأموال بالفارسية وكان بالشام مثل ذلك احدهما بالرومية والاخر بالعربية».(189)

وكلام الجهشياري صريح لا لبس فيه ولاغموض ومؤداه انه لم يكن في الدولة العربية الاسلامية منذ نشأتها ديوان بلغة فارسية عدا ديوان الخراج وكان على مؤرخينا ان يكونوا اكثر دقة فلا يصفون دواوين الدولة كلها بالعجمة ولا يقولون ان هذه الدواوين انما عربت في العصر الاموي، وفي عصر عبد الملك بن مروان.

فالحقيقة التاريخية الصريحة ان عبد الملك لم يعرب كل الدواوين وانما عرب ديوانا واحدا هو ديوان الخراج لان الدواوين الاخرى كانت عربية.

واما مايقوله الشعوبيون من ان الرسائل الديوانية والاخوانية نشأت وتطورت في الادب العربي بفضل الفرس فانه قول باطل دفع اليه الحقد على الأمة العربية والرغبة

في تجريدها مما كان لها من سبق فكري، وتقدم حضاري.[١٩٠]

فالرسالة الديوانية عربية النشأة يرجع تاريخها الى عهد مبكر قبل ان يكتبها عبد الحميد بن يحيى الكاتب واستاذه سالم وسواهما من الكتاب الذين استعربوا بعد حروب التحرير.

لقد نشأت الرسالة الديوانية عند العرب قبل الاسلام على نحو بدائي ثم تطورت ونضجت في احضان الدولة العربية الاسلامية منذ قيامها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ومضت في طريق التطور حتى بلغت اوج نضجها في العصر العباسي.

ان الرسالة الديوانية هي ضرورة لامناص منها لكل دولة، ذلك لان الدولة مهما كانت بدائية، تحتاج في تصريف شؤونها وفي علاقاتها مع الناس ومع الدول الاخرى الى هذا الفن الكتابي. الذي اصطلح عليه بالرسائل الديوانية.

وليس معقولاً ان تظل الدولة العربية الإسلامية التي نشأت في صدر الاسلام مفتقرة الى الكتابة الديوانية وانها لم تستطيع سد هذه الثغرة في تنظيماتها الادارية الابعد ان استعرب عدد من الكتاب الذين ينحدرون من اصول فارسية او رومية.

واذا كان الأمر كذلك فماذا نسمي اذن الرسائل التي املاها النبي صلى الله عليه وسلم على كتابه ثم وجهها الى الملوك والاقيال وزعماء القبائل وماذا نسمي ايضا الرسائل التي صدرت عن الخلفاء الراشدين والتي تضمنت معالجة الشؤون الحربية والسياسية والقضائية والاجتماعية وسواها من شؤون الدولة. وقل مثل ذلك عن الرسائل التي صدرت عن الخلفاء الامويين.

ان هذه الرسائل هي رسائل ديوانية وانها كتبت باقلام عربية، وتولى تحريرها كتاب عرب.

سيقول الشعوبيون ان الفرس طوروا الرسالة الديوانية واكسبوها خصائصها المعروفة التي استقرت عليها. واذا سألت الشعوبين عن وجوه هذا التطور اجابوا بانهم أطالوا الرسالة الديوانية بعد ان كانت موجزة وزخرفوها بفنون البديع والوان البلاغة بعد ان كانت عاطلة، تهتم بالمعنى دون الشكل او الصورة اللفظية.

ونقول للشعوبيين ان العرب عرفوا الرسالة الديوانية بنوعيها المطول والموجز، والمزخرف والعاطل، وأكبر دليل على ذلك رسالة عمر رضي الله عنه في القضاء وهي رسالة مطولة حافلة بصنوف البلاغة ومشتملة على الوان من البيان والبديع ويقال مثل

ذلك عن رسائل الامام علي رضي الله عنه ورسائل الحجاج وقطري بن الفجاءة وغيرهم فهي رسائل اكثرها مطول ، وقد عني كتابها بتجويد اساليبها وتوفير ضروب الزخرف لها .

واذا كان الامر كذلك وهو حتما كذلك ، فلاصحة لما يقوله الشعوبيون من ان الكتاب المستعربين هم الذين ارسوا تقاليد الرسالة الديوانية في الأدب العربي .

وما قلناه عن الرسالة الديوانية ينطبق على الرسالة الاخوانية فهي ايضا عربية النشأة (١٩١) مبكرة الظهور في الادب العربي ، ذلك لأنها وثيقة الصلة باحوال الناس ومايعرض لهم من علاقات اجتماعية . وليس معقولا ان يظل العرب بلا رسائل اخوانية تصرف شؤونهم الشخصية وانهم لم يعرفوا هذا الضرب من الرسائل الا بعد ان استعرب عدد من الكتاب الفرس .

ابو نواس وتجديد الشعر العربي

اشرت في المقالات السابقة الى ان تاريخنا الأدبي لم ينج من عبث الشعوبين ولم يبرأ من دس المتعصبين على العرب الذين راحوا يشيعون فيه اراء غريبة ، ويردون كثيرا من الظواهر الادبية الى اصول اجنبية ، أو إلى تأثر العرب بالفرس ، مع ان تلك الظواهر عربية اصيلة ، تضرب جذورها في حضارة العرب ، وكانت ثمرة العقلية العربية المبدعة ، التي اضاءت ظلام العصور الوسطى ، وانارت حياة الشعوب في تلك الحقبة .

واعرض هنا لرأي شعوبي عجيب دخل تاريخنا الادبي وتداولته أقلام بعض الدارسين ، من غير التفات الى خطله ، ولا انتباه الى الدافع الذي يكمن وراءه .

ان مؤدى هذا الرأي هو ان ذم وصف الطلول في مطلع القصيدة العربية في العصر العباسي كان ثورة فنية ، وتجديدا للشعر العربي .

واذا علمنا ان أبا نواس كان رأس الشعراء الذين دعوا الى التخلي عن وصف الاطلال في مطالع القصائد ، ادركنا السبب الذي جعل الشعوبين يجعلون دعوة ابي نواس هذه تجديدا فنيا وفتحا مبينا في عالم الشعر ، ذلك لانهم يريدون ان يصوروا ان العرب لم يستطيعوا تجديد شعرهم ، ولم يتهيأ لهم ان يحدثوا فيه مسارا جديداً أو يرفدوه بالطريف من التقاليد الفنية وان ابا نواس المتحدر ، من اصل فارسي هو الذي حرر الشعر العربي من جموده ، ونفخ فيه روحاً جديدة .

ويذهب اصحاب هذا الرأي الى ابعد من ذلك فيزعمون ان ابا نواس كان شعوبياً يمقت العرب ، ويناصبهم العداء .

ان كلا الرأيين باطل وان عصبية الشعوبيين هي التي دفعت اليهما ، واوحت بهما واليك البيان :

ان مهاجمة ابي نواس للطلول ودعوته الى ترك وصفها لم تكن مذهبا فنيا ولاثورة على القيم الشعرية ، او تجديدا للقصيدة العربية . وانما كانت تلك الدعوة مجرد سلوك حياتي شغف به ابو نواس ، وليس له علاقة بجوهر الفن الشعري ، او طريقة بناء القصيدة . فالقصيدة عند ابي نواس لم تخلع ثوبها القديم ولم تكتسب ملامح جديدة تميزها من القصيدة الأموية .

وقد احسن الدكتور عبد القادر القط بيان القيمة الفنية لدعوة ابي نواس الى نبذ وصف الطلول ، فقرر ان ابا نواس لم يسخر من الوقوف بالاطلال ولم يدع الى ترك ذكرها في مطالع القصائد لسبب فني او لشعور حقيقي بضرورة تجديد القصيدة ، وانما دعا الى ذلك ليصرف الناس والشعراء منهم خاصة عن سلوك ويغريهم بسلوك اخر ، ليصرفهم عن وصف الطول وبكائها ، ويغريهم بالاستمتاع باللهو ، والتفرغ لمعاقرة الخمرة . وفرق بين الدعوة الى مذهب فني او طريقة في الاداء الشعري والدعوة الى سلوك اجتماعي او الاخذ بطريقة معينة في الحياة .(١٩٢)

واذا استقرينا بعض مطالعه التي يهاجم فيها الاطلال وجدنا انه حين يفعل ذلك لايقدم بديلا فنياً كأنْ يدعو الى وصف مظاهر الحضارة او الحديث عن حياة المجتمع الجديد ، وانما يعقبه بالدعوة الى الاستمتاع باللهو ، والانصراف الى معاقرة اللذة .

فهو يقول :

اترك الربع وسلمى جانبا   واصطبح كرخية مثل القبس

ويقول :

لاتبك ليلى ولاتطرب إلى هند   واشرب على الورد من حمراء كالورد

ويقول

صاح مالي وللرسوم القفار   ولنعت المطي والاكوار

شغلتني المدام والقصف عنها   بقراع الطنبور والاوتار

فالشاعر في كل هذه المطالع لاينظر الى الوقوف بالاطلال على انه مذهب فني خاص لايرضى حاجته الى التجديد ، بل يعده سلوكا حياتيا لذلك لايقابله بالدعوة

الى مذهب فني بل الى سلوك اخر يناقضه .

تلك هي حقيقة الدعوة الى نبذ وصف الطلول فهي دعوة اجتماعية وليست دعوة الى مذهب فني ، ولكن الشعوبين راحوا يضخمون شأنها ، ويرون فيها تجديدا للشعر العربي .

لقد اراد الشعوبيون ان يصنعوا من دعوة ابي نواس الى نبذ وصف الاطلال في بدايات القصائد حركة تجديدية في الشعر ليظهرواتاريخنا الادبي بمظهر المدين للعنصر الفارسي في حركته ، وسير تطوره .

بقي ان نبين ان مهاجمة ابي نواس للأطلال ودعوته الى نبذ وصفها في بداية القصيدة لاتشكل دليلاً على شعوبيته كما يحلو للشعوبين ان يقرروا. فابو نواس لم يعتنق الشعوبية ولم يعاد العرب ، ودعوته هذه لاتعد اتجاها سياسياً بحال . ولعل اوضح دليل على براءة ابي نواس من تهمة الشعوبية هو حبه للأمين وانتصاره له ووقوفه بجانبه في نضاله ضد الفرس ، ولوكان شعوبياً حقاً لوجد في خذلان الأمين ومقتله على ايدي الفرس انتصاراً لمذهبه السياسي .

ومما يدلل على براءته من تهمة الشعوبية موقفه من البرامكة تلك الاسرة التي تزعمت الحركة الشعوبية واحتضنت اقطابها من الادباء والعلماء واغدقت عليهم الأموال والهبات لقد عرف ابو نواس بعدائه للبرامكة وتشهيره بهم فقد نسب اليه في احدى الروايات قوله :

اذا ذكـــــر الشرك في مجلس اضــــاءت وجوه بني بـــــرمك
وان تـــلـــيت عـــنـــدهـــم ايـــة اتوا بـــالاحـــاديث عن مـــزدك

اصالة النحو العربي

اشرنا في مقالات سابقة الى ان تعصب الشعوبين على العرب قد دعاهم الى انكار ماللعرب من مظاهر السبق الفكري ، والى تجريدهم مما ثبت لهم من اولوية في بعض العلوم . وقد تلقف بعض المستشرقين اراء الشعوبين هذه ومضوا يشيعونها في كتاباتهم كما استطاعو ان يخدعوا بها بعض العرب المعاصرين الذين راحوا يرددونها من غير تنبه لما فيها من ظلم للحقيقة وتزييف للتاريخ الأدبي والعلمي للأمة العربية .

فالنحو العربي علم اصيل ، اهتدت اليه العقلية العربية من غير ان تضعه على مثال سابق ، اوتتأثر في انشائه بثقافة اعجمية ، فارسية او يونانية .

وكان السبب الذي دعا الى وضع هذا العلم هو ماشاع في الامصار العربية

الجديدة كالبصرة والكوفة وغيرهما من انحراف عن قواعد اللغة وارتكاب للحن والخطأ . بسبب مخالطة العرب لغيرهم من ابناء الشعوب الاخرى الذين دخلوا الاسلام واخذوا يتعلمون العربية ، ويعالجون التفاهم بها مع العرب .

غير ان الشعوبين الذين اولعوا بنسبة كل سبق علمي الى الفرس او اليونان قد جحدوا هذه الحقيقة التاريخية التي يؤيدها النقل والعقل ، ونسب بعضهم وضع علم النحو الى عبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي ، وهو مولى ينحدر من اصل فارسي .(١٩٣)

لقد برز هذا الرأي في بعض كتب التراجم القديمة وتورط فيه بعض اللغويين المعاصرين . فقد ذهب الاستاذ ابراهيم مصطفى الى ان النحو نشأ على يد عبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي هذا ، مما حدا الاستاذ عبد الوهاب حمودة على ان يتصدى للرد عليه ، ويفند اقواله وادلته في بحث مستفيض .(١٩٤)

ان نسبة وضع النحو العربي الى غير العرب هو خرق لاجماع المؤرخين، ومتابعة عمياء للشعوبين الذين اضلهم الحقد على العرب ، وسولت لهم نفوسهم طمس تاريخهم العلمي والأدبي .

لقد اجمعت كتب التراجم على ان ابا الاسود الدؤلي كان الواضع الاول لعلم النحو ، وذكر عدد غير قليل من الرواة والمؤرخين ان الامام عليا رضي الله عنه هو الذي اشار على ابي الاسود ان يضع للناس ضوابط تقيهم من الخطأ وتعصم السنتهم من اللحن . وذلك بعد ان ظهر للامام علي وغيره من الغيارى على لغة العرب ، ان السليقة العربية بدأت تجانب الفصيح ، وترتكب الخطأ في الكلام عامة ، وفي تلاوة القرآن الكريم خاصة .

فالروايات الكثيرة تشير الى ان الامام عليا قال لأبي الأسود ، وكان عامله على البصرة : اني سمعت ببلدكم هذا يعني البصرة لحنا من مخالطة العرب لهذه الحمراء ، ويريد بهم الفرس . ثم اخرج الامام علي من تحت بساطه صحيفة كتب بها بعض ماسمع الناس يلحنون به ، وتصويبات ذلك ، كما وضع في تلك الصحيفة بعض الضوابط النحوية والتعريفات الأولية . فقرأها ابو الاسود ، ثم قال له الامام : ضع ماهو على غرارها . وانح هذا النحو ، فسمي هذا العلم نحواً .

وقد صدع ابو الأسود بالأمر ، وكتب بعض ابواب النحو ، على نحو اولي كباب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم.

قال محمد بن سلام الجمحي : «وكان اول من اسس العربية وفتح بابها وانهج سبيلها ووضع قياسها ابو الاسود الدولي».

وقال ابن قتيبة : ان ابا الاسود «اول من عمل في النحو كتاباً» . وقال ابو العباس المبرد : «اول من وضع العربية ونقط المصاحف ابو الاسود ، وسئل عمن ارشد الى الوضع في النحو ، فقال : تلقيته عن علي» . وقال ابو سعيد السيرافي : «اول من وضع العربية ابو الاسود الديلي» . وقال القفطي : «ان ابا الاسود هو اول من استنبط النحو واخرجه من العدم الى الوجود وانه رئي بخطه» .[195]

ويطول بنا المقام اذا اردنا ان نحصي جميع الروايات التي نصت على ان اولية النحو كانت من وضع ابي الأسود الدولي.

وعلى الرغم من هذا الأجماع ذهب الشعوبيون الى ان العقلية العربية في عصر ابي الأسود لم تكن تسمح بوضع التقسيات ، وتحديد التعريفات ، وان الامام عليا كان له من شواغله وحروبه مايصرفه عن التفكير بشأن اللغة العربية ، وتدارك ماطرأ عليها من لحن .[196]

بهذين الدليلين يريد الشعوبيون ان ينكروا حقيقة تاريخية سافرة وهي ان النحو نتاج العقلية العربية المبدعة.وليس بعسير على المنطق ان يدحض هذين الدليلين.

فاما الاستدلال بأن العقلية العربية في زمن ابي الأسود لم تكن قادرة على وضع التعريفات ورسم الحدود والضوابط فيمكن الرد عليه بأن ماوضعه ابو الاسود لم يكن الا وصفاً اوليا لحقائق لغوية عامة ، وليس في هذا مايستبعد او يستكثر على ابي الأسود او عصره.

واما ان الامام عليا كان له من مشاغله وحروبه مايصرفه عن الاهتمام بشأن العربية فيمكن رده بان جميع الخلفاء الذين سبقوا عليا ، والذين جاؤوا بعده كانوا يعنون بالعربية ، ويدعون الى تعلمها ، ويعزرون من يخطئ فيها . ولاغرر في ذلك ، فهم سدنة اللغة وحماتها ، وما كان ليشغلهم عن حمايتها والاهتمام بأمرها شاغل وليس ببعيد منا قول الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابي موسى الاشعري عامله على

الكوفة : تنح كاتبك سوطاً ، لان ذلك الكاتب اخطأ في تحرير كتاب .

وبعد فان النشأة الأولى لعلم النحو عربية اصيلة ولم يكن للفرس او غيرهم اثر في تلك النشأة .

أصالة أدب التوقيعات في اللغة العربية

من الاراء الغريبة التي اشاعها الشعوبيون أن فن التوقيعات هو فن فارسي ، لم يعرفه العرب ، ولم يهتدوا إليه إلا بعد اختلاطهم الواسع بالفرس ، عقب حروب التحرير [١٩٧] .

وقد تبنى هذا الرأي ودافع عنه بعض المستشرقين جريا على عادتهم في تلقف الاراء التي تسيء الى الأمة العربية ، وتسلبها ماكان لها من فضل على الشعوب الاخرى ، واسهام واضح في بناء الحضارة الانسانية .

ولم يتلقف هذا الرأي الجائر بعض المستشرقين حسب ، بل تورط فيه ، وانساق وراءه بعض المؤرخين العرب [١٩٨] . مسجلين في ذلك تقصيرهم بحق أمتهم ، وتنكرهم لدورها المشرق ، واضافاتها الرائعة في حقل العلوم والفنون والاداب .

وقبل أن ندحض هذا الرأي ، ونأتي بما يبطله . ويثبت زيفه من الادلة ، لابد لنا من التعريف بالتوقيعات ، وايراد نماذج منها .

«التوقيعات هي مايعلقه الخليفة او الامير او الوزير على مايقدم اليه من الكتب في شكوى حال ، او طلب نوال . وميزتها الجمع بين الايجاز والجمال والقوة . وفيما يأتي امثلة عليها .

وقع ابو جعفر المنصور على كتاب وصل اليه من عامله على مصر يذكر فيه نقصان النيل : طهر عسكرك من الفساد يعطك النيل القياد .

ووقع على كتاب أتاه من عامله على الهند ، يخبره فيه ان جماعة شغبوا عليه ، وكسروا اقفال بيت المال : لوعدلت لم يشغبوا ، ولو وفيت لم ينهبوا .

ووقع هارون الرشيد على كتاب وصل اليه من عامله على خراسان : داو جرحك لايتسع . ووقع بعد أن أطاح بجعفر البرمكي : انبته الطاعة وحصدته المعصية .

ورفعت الى المأمون شكوى من عامله الرستمي ، فوقع عليها مخاطبا عامله : ليس من المروءة ان تكون انيتك من ذهب وفضة ، وغريمك خاو ، وجارك طاو» [١٩٩] .

فالتوقيعات اذن جمل موجزة يعلق بها الخليفة او الامير على طلب يرفع اليه ، او كتاب يعرض عليه ، او شكوى ينظر فيها . وقد اولع الخلفاء والأمراء والأدباء في العصر العباسي بهذا الفن النثري ، وتركوا لنا فيه ثروة كبيرة ، تدل على امتلاكهم زمام البلاغة ، وقدرتهم على أداء المعنى الكثير في اللفظ القليل .

وعلى عادة الشعوبيين من الفرس في ادعاء الابتداعات الحضارية وسرقتها ، فانهم ذهبوا الى أن التوقيعات فارسية الأصل ، واستدلوا على ذلك بتوقيعات نسبوها الى كسرى . وقد خدع بهذا الرأي الشعوبي الحاقد الأستاذ أحمد أمين.[٢٠٠] .

إن هذا الرأي باطل ، وان التدليل على بطلانه سهل ميسور . فالعرب عرفوا التوقيعات منذ عهد مبكر ، وقبل أن يتسع اختلاطهم بالفرس . وآية ذلك ماتناقله الرواة ، وحفلت به كتب الأدب من توقيعات الخلفاء منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٢٠١] ولاشك في أن الفارسية في صدر الاسلام والعصر الأموي لم تكن معروفة لدى العرب بالقدر الذي عرفوها به في العصر العباسي . كما أن الترجمة منها لم تكن قد بدأت بعد .

واذا علمنا أن الإيجاز هو أخص سمات التوقيعات ، أدركنا أنها فن عربي ، ذلك لأن العرب كانوا يستحبون الايجاز ، ويجنحون إليه في أدبهم ، بل انهم جعلوه سمة البلاغة ، والدليل على اقتدار الأديب ، وامتلاكه ناصية البيان . كما أن اللغة العربية لغة تعين على الايجاز ، وتغري به ، لما توافر فيها من خصائص ، وتهيأ لها من سمات . ولاشك في أن اللغة لم تكتسب هذه السمات التي تعين على الايجاز مالم يكن العرب مولعين به ، يقصدون اليه ، ويعتمدون عليه في أدبهم المنظوم والمنثور .

فالعرب يتركون الكلمة اذا قام عليها دليل ، ويدعون الجملة اذا أغنى عنها السياق ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، نجدها مبثوثة في كتب الأدب والبلاغة .

فالايجاز اذن من الفنون البلاغية التي عرفها العرب ، وكان السمة الغالبة على أدبهم في شتى العصور . بل إن العرب كانوا أساتذة غيرهم من الأمم في هذا الفن ، اذ انهم كانوا يعرفون البلاغة بأنها الايجاز ، ولاشك في أن الذين استعربوا صاروا يجارون العرب في هذا المضمار ، بل انهم اعجبوا به ، ووجدوا فيه مظهرا من مظاهر عبقرية اللغة العربية ، كما رأوا ان فن التوقيعات خير ما يثبت قدرتهم على الايجاز ، فأثر عنهم في هذا المجال تراث كبير .

ومما يؤيدأن التوقيعات فن عربي ، زيادة على ماقدمناه من أدلة ، الأمثال العربية ، التي عرفها العرب قبل الاسلام . والأمثال جمل موجزة تشبه التوقيعات الى حد كبير .

مما سبق يتضح أن التوقيعات فن أصيل في اللغة العربية ، وليس منقولا عن

الفارسية كما ادعى الشعوبيون القدامى ، وكما يرى أنصارهم من المحدثين ، كما أن الأمثال العربية تعد الجذور التاريخية لهذا الفن .

الشعوبية والثقافة العربية

كان العصر الأموي شديد الوطأة على الشعوبيين ، فلم يستطيعوا خلاله ان يجهروا بعدائهم للعرب ، ولم يتمكنوا فيه من أن يروجوا مزاعمهم ، وينسبوا الى قومهم من المفاخر ما كانوا يفتقرون اليه .

لقد ظلت الشعوبية في العصر الاموي واهنة ضئيلة ، لاتملك حرية العمل ، ولاتقدر على الاعلان عن مفاهيمها ، ومزاولة نشاطها . وحين كانت الشعوبية تطل برأسها في بعض نتاجات الأدباء ، كانت تلقى الازدراء ، وربما لقي أصحابها الردع والعقوبة .

وعندما حل العصر العباسي تنفس الشعوبيون الصعداء ، ووجدوا من حرية العمل والقول ماساعدهم على القيام بنشاط تخريبي واسع توخى تاريخ العرب وأدبهم وعقائدهم الدينية .

لقد اتخذ النشاط الشعوبي مظاهر عدة ، سنحاول هنا أن نعرض لها في شئ من إيجاز .

فن مظاهر هذا النشاط التخريبي ماراحوا يشيعونه عن حضارة الفرس وعراقتها ، وفضلها على الفكر العربي . وقد اثبت الدرس التاريخي الحديث ان نصيبا كبيرا من هذه الحضارة التي يزهى بها الشعوبيون لم يكن الاحضارة وادي الرافدين التي اقتبسها الفرس ، وأضافوا إليها اضافات يسيرة .[٢٠٢]

ولم يقف نشاط الشعوبيين عند تمجيد حضارة الفرس ، وادعاء العراقة لها ، واخفاء فضل وادي الرافدين عليها ، بل ذهبوا يقللون من شأن الثقافة العربية ، ويجهرون بالاستهانة بها .

يقول ابن قتيبة : «واعاذنا الله من فتنة العصبية ، وتحامل الشعوبية ، فانها بفرط الحسد . ونغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة ، وتلحق بها كل رذيلة ، وتغلو في الذم ، وتسرف في الذم ، وتبهت بالكذب ، وتكابر بالعصيان»[٢٠٣] .

ومن مظاهر النشاط الشعوبي ان الشعوبيين الفرس وجدوا قومهم قليلي المآثر الفكرية ، يفتقرون الى الكتب والمدونات العلمية والأدبية ، فذهبوا يضعون الكتب ، وينسبونها الى قومهم ، ليغطوا النقص الذي استشعروه ، ويتهيأ لهم ان يطاولوا العرب ، ويفخروا عليهم .

غير أن الادباء العرب ادركوا أن كثيرا مما ينسب الى الفرس من كتب ورسائل هو مفتعل ومنحول . قال الجاحظ : «ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ،» اذا كان مثل ابن المقفع وسهيل بن هارون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان لايستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنفوا مثل تلك السير[٢٠٤] .

بل إن الشعوبيين الفرس تجاوزوا وضع الكتب ونسبتها الى قومهم ، فصاروا يضعون الكتب ، وينحلونها بعض الأدباء العرب ، ليظهروا العرب تابعين ومقلدين للفرس . والدليل على ذلك نسبة كتاب «التاج» الى الجاحظ[٢٠٥] .

والحق أن الجاحظ لم يؤلف هذا الكتاب ، ذلك لأن التقاليد الإدارية والسياسية والاجتماعية التي انطوى عليها الكتاب ، ونصح مؤلفه باتباعها ، هي تقاليد فارسية ، درج عليها ملوك الفرس وامراؤهم .

وقد شك باحث معاصر[٢٠٦] في أن يؤلف الجاحظ كتابا مثل هذا ، ذلك لأنه ، اي الجاحظ ، يبذل جهدا كبيرا في مقارعة الشعوبيين الفرس ، ومحاربة ماأفشوه في الحياة السياسية والاجتماعية من تقاليد يأباها الخلق ، وتترفع عنها المروءة العربية .

ومن مظاهر النشاط الشعوبي التخريبي ماكان الأدباء الشعوبيون يدعون اليه من توجيه الناشئة الى الارث الثقافي الفارسي ، وصرفهم عن الثقافة العربية ، قال الجاحظ في كتاب البيان والتبين : «قالوا – أي الشعوبيون – ومن أحب ان يبلغ في صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب ، ويتبحر في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروند ، ومن احتاج الى العقل والأدب والعبر والالفاظ الكريمة والمعاني الشريفة فلينظر سير الملوك[٢٠٧] يريد سير ملوك الفرس .

ثم يشير الجاحظ الى تبجح الشعوبيين برسائل الفرس وخطبها والفاظها ، وباليونان ورسائلها وخطبها وعلمها وحكمها وبكتب الهند ، كما يشير الى ازوراهم

عن الثقافة العربية ، ودعوتهم الناشئة الى عدم الاهتمام بها . يقول الجاحظ : «ان الناشئ من الشعوبيين متى وطئ مقعد الرئاسة وصارت الدواة أمامه روى لبزرجمهر امثاله ، ولأردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع ادبه وصيّر كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ، ثم يكون اول بدئه الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الاخبار – أي التاريخ العربي – وتهجين من نقل الآثار»[٢٠٨] .

المصادر

(١) ضحى الاسلام : ١/٥٨ ، ٥٩ ، ط . النهضة المصرية .
(٢) بلوغ الأرب : ١/ ١٦٠ (الالوسي) ط ١٣١٤هـ .
(٣) الملل والنحل : (الشهرستاني) ٢/ ٧٤ القاهرة ١٩٤٨ .
(٤) الشعوبية (عبد الله سلوم السامرائي) : ١٨ .
(٥) نفسه : ٢٠ .
(٦) الملل والنحل : ٢/٨٥ .
(٧) الشعوبية : ٢٥ .
(٨) مظاهر الشعوبية في الادب العربي (د . محمد نبيه حجاب) : ٥٠١ ط ١
(٩) نفسه .
(١٠) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ١١٢ .
(١١) الطبري : ٢/ ٤٨ القاهرة ١٩٦١ .
(١٢) نفسه : ٢/ ٢١١ .
(١٣) التيارات المذهبية بين العرب والفرس (د . أحمد محمد الحوفي) : ٣٩ .
(١٤ ، ١٥) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ١١٦ ، ١١٧ .
(١٦) مروج الذهب (المسعودي) : ٣/١٦٢ ، ١٦٣

(١٧) الشعر في بغداد (د . احمد عبد الستار الجواري) : ١٢٨ .
(١٨) نفسه : ١٣٤ ، ١٣٥ .
(١٩) حديث الاربعاء (د . طه حسين) : ٢/١٩٢ .
(٢٠) الجذور التاريخية للشعوبية (د . عبد العزيز الدوري) : ٨٤ ، ط ٢
(٢١) نفسه .
(٢٢) نفسه : ٨٥ .
(٢٣) البخلاء (الجاحظ) : ٣١ ط دار صادر .
(٢٤) الكامل (المبرد) : ٢/٣١٢ .

(٢٥) التيارات الاجنبية في الشعر العربي (د. عثمان موافي) : ٢٧٥.
(٢٦) تاريخ الادب العربي (العصر العباسي الاول) (د. شوقي ضيف) :١٧٦، ١٧٧.
(٢٧) حديث الأربعاء : ٢٥٨/٢.
(٢٨) الصراع بين الموالي والعرب (د. بديع شريف) :٨٩، ٩٠. (ط ١٩٥٤).
(٢٩) ضحى الاسلام : ١٥٣/١.
(٣٠) التيارات الاجنبية في الشعر العربي : ٢٩٢.
(٣١) الشعر في بغداد : ٢٣٨، ٢٣٩.
(٣٢) التيارات الاجنبية في الشعر العربي : ٢٩٣.
(٣٣) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٢٣١ وينظر مصدره.
(٣٤) نفسه : ٣٩٥.
(٣٥ - ٣٦) نفسه وينظر مصدره.
(٤٣) الصراع بين الموالي والعرب : ٣٠ وما بعدها.
(٤٤) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤٨٤ وما بعدها.
(٤٥) نفسه : ٢٠٨.
(٤٦) نفسه : ٢٠٨، ٢٠٩.
(٤٧) نفسه : ٢٠٩.
(٤٨) الشعوبية : ١١٤.
(٤٩) نفسه.
(٥٠) نفسه : ١١٥.
(٥١) الشعوبية : ٥٤
(٥٢) نفسه : ٥٧، ٥٨.
(٥٣) الفرق بين الفرق : ٢١٣، (عبد القاهر البغدادي) ١٩٤٨.
(٥٤) نفسه : ١٥٦.
(٥٥) الشعوبية : ٦٢ وينظر مصدره.
(٥٦) نفسه : ٦٥.
(٥٧) نفسه : ٦٦. وينظر مصدره.
(٥٨) نفسه : ٦٨، ٦٩.
(٥٩) نفسه : ٧٤.
(٦٠) الشعوبية : ٣٢ وينظر مصدره
(٦١) نفسه : ٣٢ وينظر مصدره
(٦٢) المفصل (الزمخشري) : ٢
(٦٣) الشعوبية : ٣٣
(٦٤) الطبري : ١٩٦/٨ ط الحسينية
(٦٥) فتوح البلدان (البلاذري ٥٤٩، ط ١٩٥٦
(٦٦) التيارات الملحية بين العرب والفرس : ١٠٧
(٦٧) العقد الفريد : ٤١٥/٣، ٤١٦ ط ٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٧١
(٦٨) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤٦٩
(٦٩) المقدمة (ابن خلدون) : ٥٤٣

(٧٠) نفسه .
(٧٢) الصراع بين الموالي والعرب : ٤١ .
(٧٣) نفسه .
(٧٤) نفسه .
(٧٥) الدراسات الحمدية ١/٣٥٢ نقلا عن كتاب الصراع بين الموالي والعرب : ٤٢ .
(٧٦) مروج الذهب : ٣٦/٤ ط ٢(١٩٤٨) .
(٧٧) الدراسات الحمدية ١/١٩٩ نقلا عن كتاب الصراع بين الموالي والعرب : ٤٣ .
(٧٨) الصراع بين الموالي والعرب : ٤٣
(٧٩) الصراع بين الموالي والعرب : ٤٠ .
(٨٠) ضحى الاسلام : ١/٢٠٢ .
(٨١) الصراع بين الموالي والعرب : ٤٤ .
(٨٢) نفسه .
(٨٣) معجم الادباء : ١٢/١٩١ ط دار المأمون
(٨٤) بلوغ الأرب : ١/١٦١ .
(٨٥) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٥٦٥ .
(٨٦) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٣٢١ وما بعدها .

٨٨ – معجم الادباء : ١٠/٢٥٩ .
٨٩ – الصراع بين الموالي والعرب : ٤٥ .
٩٠ – معجم الادباء : ١٠/٢٦٥ ، ٢٦٦ .
٩١ – نفسه : ٢٦٥ .
٩٢ – الصراع بين الموالي والعرب : ٤٥ .
٩٣ – نفسه : ٤٦ .
٩٤ – معجم الادباء : ١٩/٣٠٤ .
٩٥ – مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٥٥٨ .
٩٦ – نفسه : ٥٥٨ ، ٥٥٩ .
٩٧ – نفسه : ٥٥٩ .
٩٨ – البيان والتبين : ١/٦٣ تحـ . [illegible] ط ٢ .
٩٩ – مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٣٩٨ .
١٠٠ – وفيات الاعيان ١/٢١١ نقلا عن المصدر السابق : ٣٩٩ .
١٠١ – الاغاني : ١٦/١٤٣ ط التقدم .
١٠٢ – مروج الذهب : ٤/٣١٥ .
١٠٣ – من حديث الشعر والنثر (طه حسين) : ٤٦ .
١٠٤ – ضحى الاسلام : ١/١٦١ .
١٠٥ – الصراع بين الموالي والعرب : ٦٧ .
١٠٦ – مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٣٩٩ ، ٤٠٠ .
١٠٧ – نفسه : ٤٠٠ .
١٠٨ – نفسه : ٤٠٢ .
١٠٩ – ابن المقفع : ٨٣ نقلاً عن المصدر السابق : ٤١٠ .

١١٠ – مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤١٠ ، ٤١١ .
١١١ – من حديث الشعر والنثر : ٤٦ ، ٤٧ .
١١٢ – مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤١٥ .
١١٣ – مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٢٧٣ .
١١٤ – النقد اللغوي عند العرب (د. نعمة رحيم العزاوي) : ٦٦ .
١١٥ – الاغاني : ٢٠٣/٣ .
١١٦ – نفسه : ٢٣/٣ .
١١٧ – مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٢٨٤ .
١١٨ – نفسه : ٢٧٦ .
١١٩ – نفسه : ٢٨٥ .
١٢٠ – مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤١٦ .
١٢١ – نفسه .
١٢٢ – نفسه .
١٢٣ – نفسه .
١٢٤ – امراء البيان (كرد علي) : ١٦٩ .
١٢٥ – مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤١٦ .
(١٢٦) – مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤١٦ .
(١٢٧) – نفسه : ٤٢١ .
(١٢٨) – الجذور التاريخية للشعوبية : ٨٥ .
(١٢٩) – نقلا عن مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤٢٠ .
(١٣٠) – معجم الادباء : ٢٦٦/١١ .
(١٣١) – نقلاً عن مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤٢٠ .
(١٣٢) – الصراع بين الموالي والعرب : ٤٩ .
(١٣٣) – نفسه .
(١٣٤) – مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤٢١ .
(١٣٦) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤٣١ .
(١٣٧) نفسه : ٤٣٢ .
(١٣٨) معجم الادباء : ٧٩/١٦ .
(١٣٩) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤٣٥ .
(١٤٠) نفسه .
(١٤١) معجم الأدباء : ١٩/ ٩٨ .
(١٤٢) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤٤٠ .
(١٤٣) معجم الادباء : ١٦/ ١٠٧ ، ١٠٨ .
(١٤٤) امراء البيان : ٢/ ٤٥٠ .
(١٤٥) البيان والتبين (محمد السندوبي ط ٢) : ٣/ ٢٢ .
(١٤٦) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤٤١ .
(١٤٧) نفسه : ٤٤٨ .
(١٤٨) نفسه : ٤٥٢ .

(١٤٩) مظاهر الشعوبية في الأدب العربي : ٣١٥ .
(١٥٠) نفسه : ٤٢٢ .
(١٥١) نفسه .
(١٥٢) نفسه : ٤٢٣ .
(١٥٣) ادب الجاحظ (السندوبي) : ٥١ نقلا عن المصدر السابق : ٤٢٦ .
(١٥٤) مظاهر الشعوبية في الأدب العربي : ٤٢٩ ، ٤٣٠ .
(١٥٥) نفسه : ٤٣٠ .
(١٥٦) الأدب في موكب الحضارة الاسلامية (د . مصطفى الشكعة) : ٥٣١ .
(١٥٧) رسائل بديع الزمان : ٩٧ .
(١٥٨) نفسه : ١٠٣ .
(١٥٩) الأدب في ظل بني بويه (د . محمود غناوي الزهيري) : ٢٤٩ وينظر مصدره
(١٦٠) نفسه .
(١٦١) الجهلية في شعر الشريف الرضي (محمد جميل شلش) : ٥٨ .
(١٦٢) نفسه : ٥٩ .
(١٦٣) نفسه : ٥٨ .
(١٦٤) نفسه : ١٣٥ .
١٦٥ نقلاً عن التيارات الأجنبية في الشعر العربي : ١٧٣ .
١٦٦ الفخري في الآداب السلطانية : ١٣٧ ، ١٣٨ ط محمد علي صبيح .
١٦٧ التيارات الأجنبية في الشعر العربي : ١٧٥ .
١٦٨ نفسه .
١٦٩ نفسه .
١٧٠ الفخري : ١٤٥ .
١٧١ نقلاً عن التيارات الأجنبية في الشعر العربي : ١٧٧ .
(١٧٢) التيارات الأجنبية في الشعر العربي : ١٧٩ .
(١٧٣) نقلا عن المصدر السابق : ١٧٩ ، ١٨٠ .
(١٧٤) تنظر الشواهد في المصدر السابق : ١٨٦ ومابعدها .
(١٧٥) – الكامل في التاريخ (ابن الأثير) : ٣٤٧/٥ .
(١٧٦) – التيارات الأجنبية في الشعر العربي : ١٩٢ .
(١٧٧) – نفسه : ١٩٣ .
(١٧٨) – نفسه : ١٩٤ .
(١٧٩) – مروج الذهب : ٢٠٧/٤ .
(١٨٠) – تنظر الشواهد في التيارات الأجنبية في الشعر العربي : ١٩٥ ومابعدها .
(١٨١) معجم الأدباء : ١٧١/٧
(١٨٢) عصر القرآن (الدكتور محمد مهدي البصير) ٦١ ط ٢
(١٨٣) نفسه .
(١٨٤) نفسه : ٦٠ ، ٦١ .
(١٨٥) النثر الفني (د . زكي مبارك) : ٥٠/١

(١٨٦) نفسه : ١/٥٠ ، ٥١
(١٨٧) نفسه : ١/٥١
(١٨٨) نفسه : ١/٤٣
(١٨٩) – الوزراء والكتاب : ٣٨ .
(١٩٠) – نشأة الكتابة الفنية((د. حسين نصار) : ٤٧ وتنظر صفحات اخرى بعدها .
(١٩١) – نفسه .
(١٩٢) – ينظر مقال «حركات التجديد في العصر العباسي» في كتاب «الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين» : ٤٠٩ ومابعدها .
(١٩٣) – مظاهر الشعوبية في الأدب العربي : ٤٧٥ .
(١٩٤) – نفسه : ٤٧٥ ، ٤٧٦ .
(١٩٥) – الدراسات اللغوية عند العرب (د. محمد حسين آل ياسين) : ٦٠ ، ٦١ .
(١٩٦) – مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٤٧٦ .

(١٩٧) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٣٩٣ .
(١٩٨) نفسه .
(١٩٩) تاريخ الأدب العربي (احمد حسن الزيات) : ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ط ٢٥
(٢٠٠) مظاهر الشعوبية في الادب العربي : ٣٩٣ .
(٢٠١) فيما يأتي أمثلة مما أثر من توقيعات من عصر الراشدين والعصر الأموي :
أ – «تشكى قوم لعثمان بن عفان من مروان بن الحكم ، وذكروا أنه أمر بضرب اعناقهم ، فوقع في الكتاب «فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون» .
ب – وقع علي بن ابي طالب الى طلحة بن عبيد الله «في بيته يؤتى الحكم» .
ج – وقع الحجاج في قصة محبوس ذكروا أنه تاب «ما على المحسنين من سبيل» .
د – ومن توقيعات عمر بن عبد العزيز الى رجل ولاه الصدقات ، وكان دميا فعدل وأحسن «ولاأقول للذين تزدري اعينكم لن يؤتيهم الله خيرا» اي ان المنظر لايدل على المخبر .
ه – ووقع يزيد بن عبد الملك الى صاحب خراسان «لايغرنك حسن رأي قاتما تفسده عثرة» .
و – ووقع مروان بن محمد الى نصر بن سيار «يداك أوكتا وفوك نفخ» .
انظر : أدب التوقيعات (خالدة ناجي معروف) :
٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ . رسالة ماجستير مخطوطة .
(٢٠٢) تاريخ الشعر العربي (د. نجيب البهبيتي) : ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ط٣ .
(٢٠٣) الجذور التاريخية للشعوبية (د. عبد العزيز الدوري) : ٥١ وينظر مصدره .
(٢٠٤) البيان والتبيين (تحـ . السندوبي) ٣/ ٢١ ، ٢٢ ط٢ .
(٢٠٥) الجذور التاريخية للشعوبية : ٥٢ .
(٢٠٦) هو الدكتور عبد العزيز الدوري في المصدر السابق : ٥٢ .
(٢٠٧) البيان والتبيين : ٣/١٠ (السندوبي ط٢) .
(٢٠٨) نفسه : ٥٣ ، ٥٤ . وينظر مصدره .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٢٨٨ لسنة ١٩٨٣

مطبعة اشبيلية الحديثة – بغداد
هاتف : ٨٨٨٧٧١١ ، ٨٨٧٥٠٨٦

مطبعة اشبيلية الحديثة - بغداد
هاتف :

سلسلة المائة كتاب

المؤلف ! المؤلف !

اعداد : ريتشارد فندليتر

ترجمة : حارث المطلبي

مراجعة :
د. عبد الأمير الصفار